١٥٤٥ ـ والعَالِي الهِمَّةِ يَرَىٰ التَّقْصِيرَ فِي بَعْضِ العُلُوْمِ فَضِيْحَةً قَدْ كَشَفَتْ عَيْبَهُ، وَقَدْ أَرَتِ النَّاسَ عَوْرَتَهُ. وَالقَصِيْرُ الهِمَّةِ لا يُبَالِي بِمِنَنِ النَّاسِ، وَلا يَسْتَقْبِحُ سُؤَالَهُم، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ ردٍّ!!

والعَالِي الهِمَّةِ لا يَحْمِلُ ذٰلِكَ.

وَلٰكِنَّ تَعَبَ العَالِي الهِمَّةِ رَاحَةٌ فِي المَعْنَىٰ، وَرَاحَةُ القَصِيْرِ الهِمَّةِ تَعَبٌ وشَيْنٌ؛ إِنْ كَانَ ثَمَّ فَهْمٌ.

١٥٤٦ ـ وَالدُّنْيَا دَارُ سِبَاقٍ إِلىٰ أَعَالِي المَعَالِي؛ فَيَنْبَغِي لِذِي الهِمَّةِ أَلّا يُقَصِّرَ فِي شَوْطِهِ؛ فَإِنْ سَبَقَ؛ فَهُوَ المَقْصُوْدُ، وَإِنْ كَبَا جَوَادُهُ مَعَ اجْتِهَادِهِ؛ لَمْ يُلَمْ.

٣٥٣ - فصل: المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه

١٥٤٧ ـ المُصِيْبَةُ العُظْمَىٰ رِضَا الإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ، وَاقْتِنَاعُهُ بِعِلْمِهِ! وَهٰذِهِ مِحْنَةٌ قَدْ عَمَّتْ أَكْثَرَ الخَلْقِ: فَتَرَىٰ **اليَهُوْدِيَّ أَوِ النَّصْرَانِيَّ** يَرَىٰ أَنَّهُ عَلىٰ الصَّوَابِ، وَلا يَبْحَثُ ولا يَنْظُرُ فِي دَلِيْلِ نُبُوَّةِ **نَبِيِّنَا** ﷺ، وَإِذَا سَمِعَ مَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ، مِثْلَ القُرْآنِ المُعْجِزِ؛ هَرَبَ، لِئَلَّا يَسْمَعَ! وَكذٰلِكَ كُلُّ ذِي هَوًى يَثْبُتُ عَلَيْهِ: إِمَّا لِأَنَّهُ مَذْهَبُ أَبِيْهِ وَأَهْلِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ نَظَرَ نَظَرًا أَوَّلَ فَرَآهُ صَوَابًا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْمَا يُنَاقِضُهُ، وَلَمْ يُبَاحِثِ العُلَمَاءَ لِيُبَيِّنُوا لَهُ خَطأَهُ!

١٥٤٨ ـ وَمِنْ هٰذَا حَالُ **الخَوَارِجِ** عَلىٰ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه؛ فَإِنَّهُم اسْتَحْسَنُوْا مَا وَقَعَ لَهُم، وَلَمْ يَرْجِعُوْا إِلىٰ مَنْ يَعْلَمُ، وَلَمَّا لَقِيَهُم عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَبَيَّنَ لَهُمْ خَطَأَهُمْ؛ رَجَعَ عَنْ مَذْهَبِهِ مِنْهُم أَلْفانِ. وَمِمَّنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ هَوَاهُ **ابنُ مُلْجِمٍ**، فَرَأَىٰ مَذْهَبَهُ هُوَ الحَقَّ، فَاسْتَحَلَّ قَتْلَ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ رضي الله عنه، وَرَآهُ دِيْنًا، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا قُطِّعَتْ أَعْضَاؤُهُ؛ لَمْ يُمَانِعْ، فَلَمَّا طُلِبَ لِسَانُهُ لِيُقْطَعَ؛ انْزَعَجَ، وَقَالَ: كَيْفَ أَبْقَىٰ سَاعَةً فِي الدُّنْيَا لَا أَذْكُرُ اللهَ؟! وَمِثْلُ هٰذَا مَا لَهُ دَوَاءٌ.

١٥٤٩ ـ وَكذٰلِكَ كَانَ **الحَجَّاجُ**[1] يَقُوْلُ: وَاللهِ؛ مَا أَرْجُوْ الخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ المَوْتِ!

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي: قائد سفاك للدماء، ووال ظالم جبار، وداهية خطيب، وفاتح عظيم (٤٠ ـ ٩٥هـ) يعد من مساوئ بني أمية.

هٰذَا قَوْلُهُ! وَكَمْ قَدْ قَتَلَ مَنْ لا يَحِلُّ قَتْلُهُ، مِنْهُم **سَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرٍ**[1].

١٥٥٠ ـ وَقَدْ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ، وَابْنُ نَاصِرٍ الحافظ؛ قَالَا: أَخْبَرَنَا المُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الجَبَّارِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّصَيْبِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيْلُ بْنُ سَعِيْدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنا أَبُوْ بَكْرِ بْنُ الأَنْبَارِيِّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ عِيْسَى الخُتُّلِي؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ يَعْلَى؛ قَالَ: حَدَّثَنا الأَصْمَعِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ عَاصِمٍ، عَنْ عَبّادِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ قَحْذَمٍ؛ قَالَ: وُجِدَ فِي سِجْنِ الحَجَّاجِ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُوْنَ أَلْفًا، مَا يَجِبُ عَلىٰ وَاحِدٍ مِنْهُم قَطْعٌ، وَلا قَتْلٌ، وَلَا صَلْبٌ.

١٥٥١ ـ **قُلْتُ**: **وَعُمُوْمُ السَّلاطِيْنِ** يَقْتُلُوْنَ وَيَقْطَعُوْنَ، ظَنًّا مِنْهُمْ جَوَازَ ذٰلِكَ! وَلَوْ سَأَلُوْا العُلَمَاءَ؛ بَيَّنُوا لَهُم.

١٥٥٢ ـ **وَعُمُوْمُ العَوامِّ** يُبَارِزُوْنَ بِالذُّنُوْبِ اعْتِمَادًا عَلىٰ العَفْوِ، وَيَنْسَوْنَ العِقَابَ! **وَمِنْهُم** مَنْ يَعْتَمِدُ أَنِّي مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَوْ أَنَّ لِي حَسَنَاتٍ قَدْ تَنْفَعُ، **وَكُلُّ هٰذَا لِقُوَّةِ الجَهْلِ**. فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيْلِ، وَلا يُسَاكِنَ شُبْهَتَه، ولا يَثِقَ بِعِلْمِ نَفْسِهِ. فَنَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ مِنْ جَمِيْعِ الآفاتِ.

٣٥٤ - فصل ينبغي تأمله: الجزاء بالمرصاد

١٥٥٣ ـ اعْلَمْ أَنَّ الجَزَاءَ بِالمِرْصَادِ: إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً، أَوْ كَانَتْ سَيِّئَةً. وَمِنَ الاغْتِرَارِ أَنْ يَظُنَّ المُذْنِبُ إِذَا لَمْ يَرَ عُقُوْبَةً أَنَّهُ قَدْ سُوْمِحَ، وَرُبَّمَا جَاءَتِ العُقُوْبَةُ بَعْدَ مُدَّةٍ، وَقَلَّ مَنْ فَعَلَ ذَنْبًا إِلَّا وَقُوْبِلَ عَلَيْهِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣].

١٥٥٤ ـ هٰذَا **آدَمُ** عليه السلام أَكَلَ لُقْمَةً؛ فَقَدْ عَرَفْتُم مَا جَرَىٰ عَلَيْهِ. قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: أَوْحَى اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: أَلَمْ أَصْطَنِعْكَ لِنَفْسِي، وَأَحْلَلْتُكَ دَارِي، وَأَسْجَدْتُ لَكَ مَلَائِكَتِي؟! فَعَصَيْتَ أَمْرِي، وَنَسِيْتَ عَهْدِي!! وَعِزَّتِي؛ لَوْ مَلَأْتُ الأَرْضَ كُلَّها[2] مِثْلَكَ يَعْبُدُوْنَ، وَيُسَبِّحُوْنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ثُمَّ عَصَوْنِي؛ لَأَنْزَلْتُهُم مَنَازِلَ العَاصِيْنَ. فَنَزَعَ

---

(١) سيد التابعين، حبشي (٤٥ ـ ٩٥هـ) من تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما قتله الحجاج ظلمًا.

(٢) في الأصل: كلهم، وهو تصحيف.

جِبْرِيْلُ التَّاجَ عَنْ رَأْسِهِ، وَحَلَّ **مِيْكَائِيْلُ** الإِكْلِيْلَ عَنْ جَبِينِهِ، وَجَذَبَ بِنَاصِيَتِهِ، فَأُهْبِطَ. فَبَكَىٰ **آدَمُ** ثَلَاثَ مِئَةِ عَامٍ عَلَىٰ جَبَلِ **الهِنْدِ**؛ تَجْرِي دُمُوْعُهُ فِي أَوْدِيَةِ جِبَالِهَا، فَنَبَتَتْ بِتِلْكَ المَدَامِعِ أَشْجَارُ طِيبِكُمْ هٰذَا[1].

١٥٥٥ ـ وَكَذٰلِكَ **دَاوُدُ** عليه السلام؛ نَظَرَ نَظْرَةً، فَأَوْجَبَتْ عِتَابَهُ، وَبُكَاءَهُ الدَّائِمَ، حَتَّى نَبَتَ العُشْبُ مِنْ دُمُوعِهِ.

١٥٥٦ ـ وَأَمَّا **سُلَيْمَانُ** عليه السلام؛ فَإِنَّ قَوْمًا اخْتَصَمُوْا إِلَيْهِ، فَكَانَ هَوَاهُ مَعَ أَحَدِ الخَصْمَيْنِ، فَعُوقِبَ، وَتَغَيَّرَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَكَانَ يَقُوْلُ: أَطْعِمُوْنِي فَلَا يُطْعَمُ!.

١٥٥٧ ـ وَأَمَّا **يَعْقُوْبُ** عليه السلام؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ ذَبَحَ عِجْلًا بَيْنَ يَدَيْ أُمِّهِ، فَعُوْقِبَ بِفِرَاقِ يُوْسُفَ.

١٥٥٨ ـ وَأَمَّا **يُوْسُفُ** عليه السلام؛ فَأُخِذَ بِالهَمِّ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ إِخْوَتِهِ وُلِدَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا، ونُقِصَ هُوَ ولدًا لِتِلْكَ الهَمَّةِ.

١٥٥٩ ـ وَأَمَّا **أَيُّوْبُ** عليه السلام؛ فَإِنَّهُ قَصَّرَ فِي الإِنْكَارِ عَلَىٰ مَلِكٍ ظَالِمٍ لِأَجْلِ خَيْلٍ كَانَتْ فِي نَاحِيَتِهِ، فَابْتُلِيَ.

١٥٦٠ ـ وَأَمَّا **يُوْنُسُ** عليه السلام؛ فَخَرَجَ عَنْ قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَالْتَقَمَهُ الحُوْتُ.

١٥٦١ ـ وَأَوْحَىٰ اللهُ عز وجل إِلَىٰ **أَرْمِيَا**: إِنَّ قَوْمَكَ تَرَكُوا الأَمْرَ، الَّذِي أَكْرَمْتُ بِهِ آبَاءَهُم، وَعِزَّتِي؛ لَأُهَيِّجَنَّ عَلَيْهِم جُنُوْدًا لا يَرْحَمُوْنَ بُكَاءَهُم. **فَقَالَ**: يَا رَبِّ! هُمْ وَلَدُ خَلِيْلِكَ **إِبْرَاهِيْمَ**، وَأُمَّةُ صَفِيِّكَ **مُوْسَىٰ**، وَقَوْمُ نَبِيِّكَ **دَاوُدَ**. **فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ**: إِنَّمَا أَكْرَمْتُ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَىٰ وَدَاوُدَ بِطَاعَتِي، وَلَوْ عَصَوْنِي؛ لَأَنْزَلْتُهُم مَنَازِلَ العَاصِيْنَ[2].

١٥٦٢ ـ وَنَظَرَ بَعْضُ العُبَّادِ[3] شَخْصًا مُسْتَحْسَنًا، فَقَالَ لَهُ شَيْخُهُ: مَا هٰذَا النَّظَرُ؟! سَتَجِدُ غِبَّهُ[4]. فَنَسِيَ القُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً.

---

(١) هذا خبر يروى للتفكه أو للتحميض كما يسمّيها السلف.

(٢) هذه الأخبار عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الإسرائيليات، يرويها من يرويها للاستكثار من الرواية واستمالة قلوب العامة، ولا حظ لها من الصحة.

(٣) قلت: هو ابن الجلاء، وقد سبق الخبر في عدة فصول، منها (١٨).

(٤) **غبه**: عاقبته.

١٥٦٣ ـ **وَقَالَ آخَرُ**: قَدْ عِبْتُ شَخْصًا قَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَسْنَانِهِ، فَانْتَثَرَتْ أَسْنَانِي! وَنَظَرْتُ إِلىٰ ٱمْرَأَةٍ لا تَحِلُّ، فَنَظَرَ إِلىٰ زَوْجَتِي مَنْ لا أُرِيْدُ!

١٥٦٤ ـ وَكَانَ بَعْضُ العَاقِّيْنَ ضَرَبَ أَبَاهُ، وَسَحَبَهُ إِلى مَكَانٍ، فَقَالَ لَهُ الأَبُ: حَسْبُكَ! إِلىٰ هَا هُنَا سَحَبْتُ أَبِي!!.

١٥٦٥ ـ وَقَالَ **ابْنُ سِيْرِيْنَ**: عَيَّرْتُ رَجُلًا بِالإِفْلَاسِ، فَأَفْلَسْتُ. وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيْرٌ.

١٥٦٦ ـ وَمِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ فِيْهِ عَنِ الوَزِيْرِ **ابْنِ جُهَيْرٍ** المُلَقَّبِ بِالنظام[1]: أَنَّ **المُقْتَفِي** غَضِبَ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ بِأَنْ تُؤْخَذَ مِنْهُ عَشْرَةُ آلافِ دِيْنَارٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ مَحْزُوْنِيْنَ، **وَقَالُوْا لَهُ**: مِنْ أَيْنَ لَكَ عَشْرَةُ آلافِ دِيْنَارٍ؟! **فَقَالَ**: مَا يُؤْخَذُ مِنِّي عَشْرَةٌ وَلَا خَمْسَةٌ وَلا أَرْبَعَةٌ. **قَالُوْا**: مِنْ أَيْنَ لَكَ؟ **قَالَ**: إِنِّي ظَلَمْتُ رَجُلًا، فَأَلْزَمْتُهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ؛ فَمَا يُؤْخَذُ مِنِّي أَكْثَرُ مِنْهَا. فَلَمَّا أَدَّى ثَلَاثَةَ آلافِ دِيْنَارٍ؛ وَقَّعَ الخَلِيْفَةُ بِإِطْلَاقِهِ وَمُسَامَحَتِهِ فِي البَاقِي.

١٥٦٧ ـ **وَأَنَا أَقُوْلُ عَنْ نَفْسِي**: مَا نَزَلَتْ بِي آفَةٌ أَوْ غَمٌّ أَوْ ضِيْقُ صَدْرٍ؛ إِلَّا بِزَلَلٍ أَعْرِفُه، حَتَّى يُمْكِنُنِي أَنْ أَقُوْلَ: هٰذَا بِالشَّيْءِ الفُلَانِيِّ. وَرُبَّمَا تَأَوَّلْتُ فِيه بَعْدُ، فَأَرَىٰ العُقُوْبَةَ. فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَرَقَّبَ جَزَاءَ الذُّنُوْبِ؛ فَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ.

١٥٦٨ ـ وَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّوْبَةِ؛ فَقَدْ رُوِيَ فِي الحَدِيْثِ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَسْرَعُ لَحَاقًا بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَةٍ حَدِيْثَةٍ لِذَنْبٍ قَدِيْمٍ**»[2]، وَمَعَ التَّوْبَةِ يَكُوْنُ خَائِفًا مِنَ المُؤَاخَذَةِ، مُتَوَقِّعًا لَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالىٰ قَدْ تَابَ عَلىٰ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَفِي حَدِيْثِ الشَّفَاعَةِ: «**يَقُوْلُ آدَمُ: ذَنْبِي، وَيَقُوْلُ إِبْرَاهِيْمُ وَمُوْسَىٰ: ذَنْبِي**».

١٥٦٩ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣]: خَبَرٌ؛ فَهُوَ يَقْتَضِي أَلّا يُجَاوِزَ عَنْ مُذْنِبٍ، وَقَدْ عَرَفْنا قَبُوْلَ التَّوْبَةِ، وَالصَّفْحَ عَنِ الخَاطِئِيْنَ؟

---

(١) هو المظفر بن علي بن محمد بن جهير المتوفى سنة ٥٤٩هـ، ولي الوزارة للمقتفي سبعة أعوام ثم عزل. كما أفادنيه الأخ محمد علي بحري فجزاه الله خيراً، وقد جاء في الأصل (ابن حصير) وهو تصحيف.

(٢) رواه الحكيم الترمذي والطبراني في الكبير وابن مرديه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه.

فَالجَوَابُ: مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: **أَنْ يُحْمَلَ عَلىٰ مَنْ مَاتَ مُصِرًّا، وَلَمْ يَتُبْ**؛ فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا.

والثَّانِي: **أَنَّهُ عَلىٰ إِطْلَاقِهِ**، وَهُوَ الَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا، وَأَسْتَدِلُّ بِالنَّقْلِ وَالمَعْنَىٰ: أَمَّا **النَّقْلُ**؛ فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ؛ قَالَ أَبو بَكْرٍ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! أَوَ نُجَازَىٰ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ؟ فَقَالَ: «**أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَيْسَ يُصِيْبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَذٰلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ**»[1].

وَأَمّا **المَعْنَىٰ**؛ فَإِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا تَابَ وَنَدِمَ؛ كَانَ أَسَفُهُ عَلىٰ ذَنْبِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ عُقُوْبَةٍ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ عَرَفَ مَرَارَةَ الجَزَاءِ الدَّائِمِ، ثُمَّ آثَرَ لَذَّةَ المَعْصِيَةِ لَحْظَةً!

٣٥٥ - فصل: محاسبة النفس قبل أن تُحاسَب

١٥٧٠ ـ **تَفَكَّرْتُ** فِي نَفْسِي يَوْمًا تَفَكُّرَ مُحَقِّقٍ، فَحَاسَبْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ، وَوَزَنْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ، فَرَأَيْتُ اللُّطْفَ الرَّبَّانِيَّ: فَمُنْذُ الطُّفُوْلَةِ وَإِلىٰ الآنَ أَرَىٰ لُطْفًا بَعْدَ لُطْفٍ، وَسَترًا عَلىٰ قَبِيْحٍ، وَعَفْوًا عَمَّا يُوْجِبُ عُقُوْبَةً، وَمَا أَرَىٰ لِذٰلِكَ شُكْرًا إِلَّا بِاللِّسَانِ!

١٥٧١ ـ وَلَقَدْ تَفَكَّرْتُ فِي خَطَايَا؛ لَوْ عُوْقِبْتُ بِبَعْضِهَا؛ لَهَلَكْتُ سَرِيْعًا، وَلَوْ كُشِفَ لِلنَّاسِ بَعْضُهَا؛ لَاسْتَحْيَيْتُ.

وَلَا يَعْتَقِدْ مُعْتَقِدٌ عِنْدَ سَمَاعِ هٰذَا أَنَّهَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوْبِ، حَتَّىٰ يَظُنَّ فِيَّ مَا يَظُنُّ فِي الفُسَّاقِ، بَلْ هِيَ ذُنُوْبٌ قَبِيْحَةٌ فِي حَقِّ مِثْلِي، وَقَعَتْ بِتَأْوِيْلَاتٍ فَاسِدَةٍ فَصِرْتُ إِذَا دَعَوْتُ؛ أَقُوْلُ: **اللَّهُمَّ!** بِحَمْدِكَ وَسَتْرِكَ عَلَيَّ اغْفِرْ لِي!

١٥٧٢ ـ ثُمَّ طَالَبْتُ نَفْسِي بِالشُّكْرِ عَلىٰ ذٰلِكَ؛ فَمَا وَجَدْتُهُ كَمَا يَنْبَغِي. ثُمَّ أَنَا أَتَقَاضَى القَدَرَ مُرَادَاتِي، وَلَا أَتَقَاضَىٰ نَفْسِي بِصَبْرٍ عَلىٰ مَكْرُوْهٍ، وَلَا بِشُكْرٍ عَلىٰ نِعْمَةٍ. فَأَخَذْتُ أَنُوْحُ عَلىٰ تَقْصِيْرِي فِي شُكْرِ المُنْعِمِ، وَكَوْنِي أَتَلَذَّذُ بِإِيْرَادِ العِلْمِ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيْقِ عَمَلٍ بِهِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٣٩)، وأحمد (١/ ١١)، وابن حبان (٢٩١٠) عن أبي بكر رضي الله عنه.

١٥٧٣ ـ وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو مَقَامَاتِ الكِبَارِ؛ فَذَهَبَ العُمُرُ، وَمَا حَصَلَ المَقْصُوْدُ!! فَوَجَدْتُ **أَبَا الوَفَاءِ ابْنَ عَقِيْلٍ** قَدْ نَاحَ نَحْوَ ما نُحْتُ، فَأَعْجَبَتْنِي نِيَاحَتُهُ، فَكَتَبْتُهَا هَاهُنَا. قَالَ لِنَفْسِهِ:

يَا رَعْنَاءُ! تَقُوِّمِيْنَ الأَلْفَاظَ لِيُقَالَ: مُنَاظِرٌ!! وَثَمَرَةُ هٰذَا أَنْ يُقَالَ: يا مُنَاظِرُ! كَمَا يُقَالَ لِلْمُصَارِعِ: الفَارِهُ[١].

ضَيَّعْتِ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ وَأَنْفَسَها عِنْدَ العُقَلَاءِ ـ وَهِيَ أَيَّامُ العُمُرِ ـ حَتَّىٰ شَاعَ لَكِ بَيْنَ مَنْ يَمُوْتُ غَدًا اسْمُ مُنَاظِرٍ، ثُمَّ يُنْسَى الذَّاكِرُ وَالمَذْكُوْرُ إِذَا دَرَسَتِ[٢] القُلُوْبُ! هٰذَا إِنْ تَأَخَّرَ الأَمْرُ إِلىٰ مَوْتِكِ، بَلْ رُبَّمَا نَشَأَ شَابٌّ أَفْرَهُ مِنْكِ، فَمَوَّهُوْا لَهُ، وَصَارَ الاسْمُ لَهُ!! وَالعُقَلَاءُ عَنِ اللهِ تَشَاغَلُوْا بِمَا إِذَا انْطَوَوْا نَشَرَهُم[٣]، وَهُوَ العَمَلُ بِالعِلْمِ، وَالنَّظَرُ الخَالِصُ لِنُفُوْسِهِم.

أُفٍّ لِنَفْسِي! وَقَدْ سَطَّرْتُ عِدَّةَ مُجَلَّدَاتٍ فِي فُنُونِ العُلُوْمِ[٤]، وَمَا عَبَقَ بِهَا فَضِيْلَةٌ، إِنْ نُوْظِرْتُ؛ شَمَخَتْ، وَإِنْ نُوْصِحْتُ؛ تَعَجْرَفَتْ، وَإِن لاَحَتِ الدُّنيا؛ طَارَتْ إِلَيْهَا طَيَرَانَ الرَّخَمِ[٥]، وَسقَطَتْ عَلَيْهَا سُقُوْطَ الغُرَابِ عَلىٰ الجِيَفِ. فَلَيْتَهَا أَخَذَتْ أَخْذَ المُضْطَرِّ مِنَ المَيْتَةِ، تُوْقِرُ[٦] فِي المُخَالَطَةِ عُيُوْبًا تُبْلِي، وَلا تَحْتَشِمُ نَظَرَ الحَقِّ إِلَيْهَا!! وَإِنِ انْكَسَرَ لَهَا غَرَضٌ؛ تَضَجَّرَتْ؛ فَإِنْ أُمِدَّتْ[٧] بِالنِّعَمِ؛ اشْتَغَلَتْ عَنِ المُنْعِمِ!!

أُفٍّ واللهِ مِنِّي، اليَوْمَ عَلىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، وَغَدًا تَحْتَهَا! وَاللهِ؛ إِنَّ نَتَنَ جَسَدِي بَعْدَ ثَلَاثٍ تَحْتَ التُّرَابِ أَقَلُّ مِنْ نَتَنِ خَلَائِقِي وَأَنَا بَيْنَ الأَصْحَابِ!

واللهِ؛ إِنَّنِي قَدْ بَهَرَنِي حِلْمُ هٰذَا الكَرِيْمِ عَنِّي؛ كَيْفَ يَسْتُرُنِي[٨]، وَأَنَا أَتَهَتَّكُ،

---

(١) **الفاره**: الحسن البارع.
(٢) **درست**: عفت وانمحت.
(٣) أحيا ذكرهم.
(٤) هو كتاب (الفنون).
(٥) **الرخم**: طائر جارح على شكل النسر، غزير الريش، مبقع بسواد وبياض، له منقار طويل التقوس، يوصف بالغدر والحمق.
(٦) **توقر**: تحمل وتقترف، وفي الأصل: توفر، وهو تصحيف.
(٧) في الأصل: امتدت.
(٨) في الأصل: سترني.

وَيَجْمُعِني وَأَنَا أَتَشَتَّتُ؟! وَغَدًا يُقَالُ: مَاتَ الحَبْرُ العَالِمُ الصَّالِحُ، وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِنَفْسِي؛ مَا دَفَنُونِي.

وَاللهِ؛ لِأُنَادِيَنَّ عَلىٰ نَفْسِي نِدَاءَ المُكَشِّفِيْنَ مَعَايِبَ الأَعْدَاءِ، وَلَأَنُوْحَنَّ نَوْحَ الثَّاكِلِيْنَ لِلْأَبْنَاءِ؛ إِذْ لا نَائِحَ لِيْ يَنُوحُ عَلَيَّ لِهٰذِهِ المَصَائِبِ المَكْتُوْمَةِ، وَالخِلَالِ المُغَطَّاةِ، الّتي قَدْ سَتَرَها مَنْ خَبِرَها، وَغَطَّاهَا مَنْ عَلِمَها.

وَاللهِ؛ مَا أَجِدُ لِنَفْسِي خَلَّةً أَسْتَحْسِنُ أَنْ أَقُوْلَ مُتَوَسِّلًا بِهَا: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي كَذَا بِكَذَا.

واللهِ؛ مَا التَفَتُّ قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ مِنْهُ سُبْحَانَه بِرًّا يَكْفِيْنِي، وَوِقَايَةً تَحْمِيْنِي مِنْ تَسَلُّطِ الأَعْدَاءِ، وَلا عَرَضَتْ حَاجَةٌ فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَّا قَضَاهَا. هٰذَا فِعْلُهُ مَعِي، وَهُوَ رُبٌّ غَنِيٌّ عَنِّي، وَهٰذَا فِعْلِي، وَأَنَا عَبْدٌ فَقِيْرٌ إِلَيْهِ!! وَلَا عُذْرَ لِي فَأَقُوْلُ: مَا دَرَيْتُ، أَوْ: سَهَوْتُ.

واللهِ؛ لَقَدْ خَلَقَنِي خَلْقًا صَحِيْحًا سَلِيْمًا، وَنَوَّرَ قَلْبِي بِالفِطْنَةِ، حَتَّى إِنَّ الغَائِبَاتِ وَالمَكْنُوْنَاتِ تَنْكَشِفُ لِفَهْمِي. فَوَا حَسْرَتَاهُ عَلىٰ عُمُرٍ انْقَضَىٰ فِيْمَا لا يُطَابِقُ الرِّضَا! وَا حِرْمَانِي لِمَقَامَاتِ الرِّجَالِ الفُطَنَاءِ! يَا حَسْرَتَا عَلىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ، وَشَمَاتَةَ العَدُوِّ بِي! وَا خَيْبَةَ مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِي إِذَا شَهِدَتِ الجَوَارِحُ عَلَيَّ! وَا خُذْلَانِي عِنْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ! سَخِرَ ـ وَاللهِ ـ مِنِّي الشَّيْطَانُ، وَأَنَا الفَطِنُ!!

اللّٰهُمَّ! تَوْبَةً خَالِصَةً مِنْ هٰذِهِ الأَقْذَارِ، وَنَهْضَةً صَادِقَةً لِتَصْفِيَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الأَكْدَارِ! وَقَدْ جِئْتُكَ بَعْدَ الخَمْسِيْنَ، وَأَنَا مِنْ خَلَقِ[1] المَتَاعِ، وَأَبَىٰ العِلْمُ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِي إِلَىٰ مَعْدِنِ الكَرَمِ، وَلَيْسَ لِي وَسِيْلَةٌ إِلَّا التَّأَسُّفُ وَالنَّدَمُ؛ فَوَاللهِ؛ مَا عَصَيْتُكَ جَاهِلًا بِمِقْدَارِ نِعَمِكَ، وَلا نَاسِيًا لِمَا أَسْلَفْتَ مِنْ كَرَمِكَ؛ فَاغْفِرْ لِي سَالِفَ فِعْلِي.

٣٥٦ - فصل: عداوة الأقارب صعبة

١٥٧٤ ـ عَدَاوَةُ الأَقَارِبِ صَعْبَةٌ، وَرُبَّمَا دَامَتْ، كَحَرْبِ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ ابْنَيْ

---

(١) **الخَلَق**: البالي.

وَائِل[1]. وَعَبْسٍ وَذبْيَانَ ابْنَي بَغِيْضٍ[2]، وَالأَوْسِ والخَزرَجِ ابْنَي قَيْلَةَ[3]. قَالَ **الجَاحِظُ**[4]: تَعدَّتْ هٰذِهِ الحَرْبُ أَرْبَعِيْن عامًا.

والسَّبَبُ فِي هٰذَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الأَقَارِبِ يَكْرَهُ أَنْ يَفُوْقَهُ قَرِيْبُهُ، فَيَقَعَ التَحَاسُدُ.

١٥٧٥ ـ فَيَنْبَغِي لِمَنْ فُضِّلَ عَلىٰ أَقَارِبِه أَنْ يَتَواضَعَ لَهُمْ، وَيَرْفَعَهُم جَهْدَه، وَيَرْفُقَ بِهِمْ؛ لَعَلَّهُ يَسْلَمُ. قَالَ رَجُلٌ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ: لِيْ أَقَارِبُ أَصِلُهُم فيَقْطَعُوْنِي؟ فَقَالَ: **«فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيْرٌ مَا دُمْتَ عَلىٰ ذٰلِك»**[5].

٣٥٧ - فصل: المؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده

١٥٧٦ ـ رَأَيْتُ كِلَابَ الصَّيْدِ؛ إِذَا مَرَّتْ بِكِلَابِ المَحَلَّةِ؛ نَبَحَتْهَا هٰذِهِ، وبَالَغَتْ، وَأَسْرَعَتْ خَلْفَهَا، وَكَأَنَّهَا تَرَاهَا مُكَرَّمَةً مُجَلَّلَةً، فَتَحْسُدُهَا عَلىٰ ذٰلِكَ! وَرَأَيْتُ كِلَابَ الصَّيْدِ حِيْنَئِذٍ لا تَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَلَا تُعِيْرُهَا الطَّرْفَ[6]، ولا تَعُدُّ نُبَاحَهَا شَيْئًا! فَرَأَيْتُ أَنَّ كِلَابَ الصَّيْدِ كَأَنَّها لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الكِلَابِ؛ لِأَنَّ **تِلْكَ** غَلِيْظَةُ البَدَنِ، كَثِيْفَةُ الأَعْضَاءِ، لا أَمَانَةَ لَهَا، **وَهٰذِهِ** لَطِيْفَةٌ، دَقِيْقَةُ الخِلْقَةِ، وَمَعَهَا آدَابٌ قَدْ نَاسَبَتْ خِلْقَتَها اللَّطِيْفَة، وَأَنَّهَا تَحْبِسُ الصَّيْدَ عَلىٰ مَالِكِهَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، أَوْ مُرَاعَاةً لِشُكْرِ نِعْمتِهِ عَلَيْهَا.

فَرَأَيْتُ أَنَّ الأَدَبَ وَحُسْنَ العِشْرَةِ يَتْبَعُ لَطَافَةَ البَدَنِ، وَصَفَاءَ الرُّوْحِ، وَهٰكَذَا المُؤْمِنُ العَاقِلُ؛ لا يَلْتَفِتُ إِلىٰ حَاسِدِهِ، وَلا يَعُدُّهُ شَيْئًا؛ إِذْ هُوَ فِي وَادٍ، وَذَاكَ فِي وَادٍ، وَذَاكَ يَحْسُدُهُ عَلىٰ الدُّنيا، وهٰذَا هِمَّتُهُ الآخِرَةُ؛ فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَ الوَادِيَيْنِ!

---

(١) تعرف بحرب البسوس وهي ناقة مشؤومة هاجت بسببها الحرب بين بكر وتغلب فضرب بها المثل فقيل: أشأم من البسوس.

(٢) وقعت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء.

(٣) وهي حروب كثيرة أولها يوم سمير وآخرها بُعاث كان قبل الهجرة بخمس سنوات.

(٤) عمر بن بحر بن محبوب الكناني الليثي (١٦٣ ـ ٢٥٥هـ) أبو عثمان، كبير أئمة الأدب وأشهرهم، صاحب التصانيف البديعة الذائعة الصيت، مولده ووفاته بالبصرة.

(٥) رواه مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، **(المل)**: الرماد الحار.

(٦) **لا يعيرها الطرف**: لا يهتم بها.

٣٥٨ - فصل: ملاحظتُهُ مِنْ أهم الأشياء

١٥٧٧ - يَنْبَغِي لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُسَلِّمَ لَهُ فِي أَفْعَالِهِ، وَيَعْلَمَ أَنَّه حَكِيْمٌ وَمَالِكٌ، وَأَنَّهُ لا يَعْبَثُ[1]؛ فَإِنْ خَفِيَتْ عَلَيْهِ حِكْمَةُ فِعْلِهِ؛ نَسَبَ الجَهْلَ إِلىٰ نَفْسِهِ، وَسَلَّمَ لِلْحَكِيْمِ المَالِكِ؛ فَإِذَا طَالَبَهُ العَقْلُ بِحِكْمَةِ الفِعْلِ؛ قَالَ: مَا بَانَتْ لِي؛ فَيَجِبُ عَلَيَّ تَسْلِيْمُ الأَمْرِ لِمَالِكِهِ.

١٥٧٨ - وَإِنَّ أَقْوامًا نَظَرُوْا بِمُجَرَّدِ العَقْلِ إِلىٰ كَثِيْرٍ مِنْ **أَفْعَالِ الحَقِّ سُبْحَانَه**، فَرَأَوْهَا لَوْ صَدَرَتْ مِنْ مُخْلُوْقٍ؛ نُسِبَ فِيْهَا إِلىٰ ضِدِّ الحِكْمَةِ، فَنَسَبُوْا الخَالِقَ إِلىٰ ذٰلِكَ!! وَهٰذَا الكُفْرُ المَحْضُ، والجُنُوْنُ البَارِدُ!

والوَاجِبُ نِسبةُ الجَهْلِ إِلىٰ النُّفُوْسِ؛ فَإِنَّ العُقُوْلَ قَاصِرَةٌ عَنْ مُطَالَعَةِ حِكْمَتِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ إِبْلِيْسُ؛ فَإِنَّه قَدْ رَآهُ قَدْ فَضَّلَ طِيْنًا عَلىٰ نَارٍ، والعَقْلُ يَرَىٰ النَّارَ أَفْضَلَ، فَعَابَ حِكْمَتَهُ، وَعَمَّتْ هٰذِهِ المِحْنَةُ خَلْقًا مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلىٰ العِلْمِ، وَكَثِيْرًا مِنَ العَوَامِّ؛ فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَالِمًا يَعْتَرِضُ، وَعَامِّيًّا يَرُدُّ فَيُكَفَّرُ! وَهٰذِهِ مِحْنَةٌ قَدْ شَمِلتْ أَكْثَرَ الخَلْقِ؛ يَرَوْنَ عَالِمًا يُضَيَّقُ عَلَيْهِ، وَفَاسِقًا وُسِّعَ عَلَيْهِ، فَيَقُوْلُوْنَ: هٰذَا لا يَلِيْقُ بِالحِكْمَةِ!!

١٥٧٩ - وَقَدْ عَلِمَ العُلَمَاءُ أَنَّ الله تَعَالى قَدْ فَرَضَ الزَّكَواتِ والخَرَاجَ والجِزْيَةَ والغَنَائِمَ والكَفّارَاتِ لِيَسْتَغْنِيَ بِهَا الفُقَرَاءُ، فَٱخْتَصَّ بِذٰلِكَ الظَّلَمَةَ، وصَانَعَ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ بِإِخْرَاجِ بَعْضِهَا، فَجَاعَ الفَقِيْرُ! فَيَنْبَغِي أَنْ نَذُمَّ هٰؤلاءِ الظَّلَمَةَ، ولا نَعْتَرِضَ عَلىٰ مَنْ قَدَّرَ الكِفَايَةَ لِلْفُقَرَاءِ.

وَقَدْ حَصَلَ فِي ضِمْنِ هٰذَا عُقُوْبَةُ الظَّالِمِيْنَ فِي حَبْسِهِمُ الحُقُوْقَ، وابْتِلَاءُ الفُقَرَاءِ بِصَبْرِهِم عَنْ حُظُوْظِهِم.

١٥٨٠ - وَأَكْثَرُ هٰؤلاءِ المُعْتَرِضِيْنَ لا يَكَادُوْنَ يَسْلَمُوْنَ وَقْتَ خُرُوْجِ الرُّوْحِ مِنِ اعْتِرَاضٍ يُخْرِجُ إِلىٰ الكُفْرِ، فَتَخْرُجُ النَّفْسُ كافِرَةً.

---

(١) في الأصل: ولا يغيب، وهو تصحيف.

فَكَمْ عَامِيٍّ يَقُوْلُ: فلَانٌ قَدِ ابْتُلِيَ، وما يسْتَحقُّ! وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ قَدْ فُعِلَ بِهِ مَا لَا يَلِيْقُ بِالصَّوَابِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الخُلَعَاءِ:

أَيَا رَبِّ تَخْلُقُ أَقْمَارَ لَيْلٍ ... وَأَغْصَانَ بَانٍ، وَكُثْبَانَ رَمْلِ
وَتَنْهَى عِبَادَكَ أَنْ يَعْشَقُوْا ... أَيَا حَاكِمَ العَدْلِ ذَا حُكْمُ عَدْلِ

وَمِثْلُ هٰذَا يُنْشِدُهُ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ وَيَسْتَحْسِنُوْنَهُ، وَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ!!

وَمَا فَهِمَ هٰؤلاءِ القائلين لهذا [سِرَّ النَّهْيِ وَلا مَعْنَاهُ]؛ لأَنَّهُ مَا نَهَىٰ عَنِ العِشْقِ، وَإِنَّمَا نَهَىٰ عَنِ العَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ العِشْقِ مِنَ الأَشْيَاءِ المُحَرَّمَةِ؛ كَالنَّظَرِ، وَاللَّمْسِ، وَالفِعْلِ القَبِيْحِ.

١٥٨١ ـ وفِي الاَمْتِنَاعِ عَنِ المُشْتَهَى دَلِيْلٌ عَلىٰ الإِيْمَانِ بِوُجُوْدِ النَّاهِي؛ كَصَبْرِ العَطْشَانِ فِي رَمَضَانَ عَنِ المَاءِ؛ فَإِنَّهُ دَلِيْلٌ عَلىٰ الإِيْمَانِ بِوُجُودِ مَنْ أَمَرَ بِالصَّوْمِ، وَتَسْلِيْمُ النُّفُوْسِ إِلىٰ القَتْلِ وَالجِهَادِ دَلِيْلٌ عَلىٰ اليَقِيْنِ بالجَزَاءِ.

ثُمَّ المُسْتَحْسَنُ أُنْمُوْذَجُ مَا قَدْ أعِدَّ؛ فَأَيْنَ العَقْلُ المُتَأَمِّلُ؟! كَلَّا؛ لَوْ تَأَمَّلَ، وَصَبَرَ قَلِيْلًا؛ لَرَبِحَ كَثِيرًا.

١٥٨٢ ـ وَلَوْ ذَهَبْتُ أَذْكُرُ مَا قَدْ عَرَفَتْ مِن اعْتِرَاضِ العُلَمَاءِ وَالعَوَامِّ؛ لَطَالَ. وَمِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ حَالًا فِي ذٰلِكَ مَا يُحْكَىٰ عَنِ ابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ أَنَّهُ جَاعَ يَوْمًا، وَاشْتَدَّ جُوْعُهُ، فَجَلَسَ عَلىٰ الجِسْرِ وَقَدْ أَمَضَّه[1] الجُوْعُ، فَمَرَّتْ خَيْلٌ مُزَيَّنَةٌ بِالحَرِيْرِ وَالدِّيْبَاجِ، فَقَالَ: لِمَنْ هٰذِهِ؟ فَقَالُوْا: لِعَلِيِّ بْنِ بَلْتَقٍ غُلَامِ الخَلِيْفَةِ. فَمَرَّتْ جَوَارٍ مُسْتَحْسَنَاتٌ، فَقَالَ: لِمَنْ هٰذِهِ؟ فَقَالُوْا: لِعَلِيِّ بْنِ بَلْتَقٍ. فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَرَآهُ، وَعَلَيْهِ أَثَرُ الضُّرِّ، فَرَمَىٰ إِلَيْهِ رَغِيْفَيْنِ، فَأَخَذَهُما، وَرَمَىٰ بِهِما، وَقَالَ: هٰذَا لِعَلِيِّ بْنِ بَلْتَقٍ، [وهٰذَانِ لِي]؟! وَنَسِيَ الجَاهِلُ الأَحْمَقُ أَنَّه بِمَا يَقُوْلُ وَيَعْتَرِضُ وَيَفْعَلُ أَهْلٌ[2] [لِهٰذِهِ][3] المَجَاعَةِ.

١٥٨٣ ـ فَيَا مُعْتَرِضِيْنَ وَهُمْ فِي غَايَةِ النَّقْصِ ـ عَلىٰ مَنْ لا عَيْبَ فِي فِعْلِهِ! أَنْتُم

---

(١) **أمضّه**: آلمه.
(٢) في الأصل: قبل.
(٣) في حاشية الأصل: بياض بالأصل.

فِي البِدَايَةِ **مِنْ مَاءٍ وَطِيْنٍ**، وَفِي الثَّانِي مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ، ثُمَّ تَحْمِلُوْنَ الأَنْجَاسَ عَلىٰ الدَّوَام، وَلَوْ حُبِسَ عَنْكُمُ الهَوَاءُ؛ لَصِرْتُم جِيَفًا، ولو أليق. . .[1] مِنْكُمْ أَهْلَكَكُمْ. وَكَمْ مِنْ رَأْيٍ يَرَاهُ حَازِمُكُم؛ فَإِذَا عَرَضَهُ عَلىٰ غَيْرِهِ؛ تَبَيَّنَ لَهُ قُبْحُ رَأْيِهِ.

ثُمَّ المَعَاصِي مِنْكُم زَائِدَةٌ فِي الحَدِّ؛ فَمَا فِيْكُم إِلَّا الاعْتِرَاضُ عَلىٰ المَالِكِ الحَكِيْمِ؟! وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هٰذِهِ البَلَاوِي[2] إِلَّا أَنْ يُرَادَ مِنَّا التَّسْلِيمُ؛ لَكَفَىٰ.

١٥٨٤ ـ وَلَوْ أَنَّه أَنْشَأَ الخَلْقَ لِيَدُلُّوا عَلىٰ وُجُوْدِهِ. ثُمَّ أَهْلَكَهُم، وَلَمْ يَعِدْهُمْ؛ كَانَ ذٰلِكَ لَهُ؛ لِأَنَّه مَالِكٌ، لٰكِنَّهُ بِفَضْلِهِ وَعَدَ بِالإِعَادَةِ والجَزَاءِ والبَقَاءِ الدَّائِمِ فِي النَّعِيْمِ. فَمَتَى مَا جَرَى أَمْرٌ لا تَعْرِفُ عِلَّتَه؛ فَانْسُبْ ذٰلِكَ إِلى قُصُوْرِ عِلْمِكَ، وَقَدْ تَرَىٰ مَقْتُولًا ظُلْمًا، وَكَمْ قَدْ قَتَلَ وَظَلَمَ، حَتَّى قُوْبِلَ بِبَعْضِهِ. وَقَلَّ أَنْ يَجْرِيَ لِأَحَدٍ آفَةٌ إِلَّا وَيَسْتَحِقُّهَا؛ غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الآفَاتِ المُجَازَىٰ بِهَا غَائِبَةٌ عَنَّا، وَرَأَيْنَا الجَزَاءَ وَحْدَهُ.

فَسَلِّمْ تَسْلَمْ، وَٱحْذَرْ كَلِمَةَ ٱعْتِرَاضٍ أَوْ إِضْمَارٍ؛ فَرُبَّمَا أَخْرَجَتْكَ مِنْ دَائِرَةِ الإِسْلَامِ.

٣٥٩ - فصل: أحوال الناس في العيد تشبه أحوالهم يوم القيامة

١٥٨٥ ـ رَأَيْتُ النَّاسَ **يَوْمَ العِيْدِ**، فَشَبَّهْتُ الحَالَ **بِالقِيَامَةِ**: فَإِنَّهُم لَمَّا انْتَبَهُوا مِنْ نومِهِم؛ خَرَجُوْا إِلى عِيْدِهِم كَخُرُوْجِ المَوْتَىٰ مِنْ قُبُورِهِم إِلىٰ حَشْرِهِم.

١٥٨٦ ـ **فَمِنْهُم** مَنْ زِيْنَتُهُ الغَايةُ، وَمَرْكَبُهُ النِّهَايَةُ[3]، وَمِنْهُم المُتَوَسِّطُ، وَمِنْهُم المَرْذُوْلُ. وَعَلىٰ هٰذَا أَحْوَالُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾؛ أَيْ: رُكْبَانًا. ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم]؛ أي: عِطَاشًا. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة والسَّلَامُ: «**يُحْشَرُوْنَ رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلىٰ وُجُوْهِهِم**»[4]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُدَاسُ فِي زَحْمَةِ العِيْدِ، وَكذٰلِكَ الظَّلَمَةُ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِم فِي القِيَامَةِ.

---

(١) في حاشية الأصل: كذلك أيضًا. (٢) البلايا.

(٣) أي: هو في غاية الزينة، ومركبه في غاية الفراهة.

(٤) رواه الترمذي (٢٤٢٤)، وأحمد (٥/ ٣ و٥)، والحاكم (٤/ ٥٦٤) وصححه ووافقه الذهبي.

١٥٨٧ ـ وَمِنَ النَّاسِ يَوْمَ العِيْدِ الغَنِيُّ المُتَصَدِّقُ، كَذٰلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَهْلُ المَعْرُوْفِ فِي الدُّنيا هُمْ أَهْلُ المَعْرُوْفِ فِي الآخِرَةِ. **وَمِنْهُم** الفَقِيْرُ السَّائِلُ، الَّذِي يَطْلُبُ أَن يُعْطَىٰ، كَذٰلِكَ يَوْمَ الجَزَاءِ: «**أَعْدَدْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ**»(١). **وَمِنْهُم** مَنْ لا يُعْطَفُ عَلَيْهِ؛ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء].

١٥٨٨ ـ وَالأَعْلامُ مَنْشُوْرَةٌ في العِيْد، كذٰلِكَ أَعْلَامُ المُتَّقِيْنَ فِي القِيَامَةِ، وَالبُوْقُ يُضْرَبُ. كذٰلِكَ يُخْبَرُ بَحَال العَبْد، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ المَوْقِفِ! إِنَّ فُلَانًا قَدْ سَعِدَ سَعَادَةً لا شَقَاوَةَ بَعْدَها، وَإِنَّ فُلَانًا قَدْ شَقِيَ شَقَاوَةً لا سَعَادَةَ بَعْدَهَا.

١٥٨٩ ـ ثُمَّ يَرْجِعُوْنَ مِنَ العِيْدِ بِالخَوَاصِّ إلى بَابِ الحُجْرَةِ يُخْبِرُوْنَ بِامْتِثَالِ الأَوَامِرِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، فَيَخْرُجُ التَّوْقِيْعُ إِلَيْهِم: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]. وَمَنْ هُوَ دُوْنَهم يَخْتَلِفُ حَالُه: فَمِنْهُم مَنْ يَرْجِعُ إِلىٰ بَيْتٍ عَامِرٍ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وَمِنْهُم مُتَوَسِّطٌ، وَمِنْهُم مَنْ يَعُوْدُ إِلىٰ بَيْتِ قَفْرٍ. فَاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَلبابِ.

٣٦٠ - فصل: يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد*

١٥٩٠ ـ يَا قَوْمُ! قَدْ عَلِمْتُم **أَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ**، وَقَدْ فَهِمْتُم قَوْلَه تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وَقَدْ سَمِعْتُم عَنِ السَّلَفِ أَنَّهُم كَانُوْا لا يَعْمَلُوْنَ، وَلَا يَقُوْلُوْنَ حَتَّى تَتَقَدَّمَ النِيَّةُ وَتَصِحَّ.

١٥٩١ ـ أَيَذْهَبُ زَمَانُكُم يَا **فُقَهَاءُ** فِي الجَدَلِ وَالصِّيَاحِ، وَتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُكُمْ عِنْدَ اجْتِمَاعِ العَوَامِّ تَقْصِدُوْنَ المُغَالَبَةَ؟! أَوَمَا سَمِعْتُم: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ؛ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوْهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»(٢)؟! ثُمَّ يُقْدِمُ أَحَدُكُمْ عَلىٰ الفَتْوَى، وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا؛ وَقد كَانَ السَّلَفُ يَتَدَافَعُوْنَها!

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأحمد (٣/ ٢١٣)، وابن حبان (٦٤٦٨)، والحاكم (١/ ٦٩) عن أنس رضي الله عنه وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٧٧)، والحاكم (١/ ٨٦) عن جابر رضي الله عنه.

١٥٩٢ ـ وَيَا مَعْشَرَ **المُتَزَهِّدِيْنَ!** إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ! أَتُظْهِرُوْنَ الفَقْرَ فِي لِبَاسِكُم، وَأَنْتُم تَسْتَوْفُوْنَ شَهَوَاتِ النُّفُوْسِ، وَتُظْهِرُوْنَ التَّخَاشُعَ وَالبُكَاءَ فِي الجَلَوَاتِ دُوْنَ الخَلَوَاتِ؟! كانَ ابْنُ سِيْرِيْنَ يَضْحَكُ ويُقَهْقِهُ؛ فَإِذَا خَلَا؛ بَكَىٰ أَكْثَرَ اللَّيْلِ. وَقَالَ سُفْيَانُ لِصَاحِبِهِ: مَا أَوْقَحَكَ! تُصَلِّي وَالنَّاسُ يَرَوْنَكَ؟!

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلَامِ، وَلَا صَبْغَ الحَوَاجِيْبِ

١٥٩٣ ـ آهٍ لِلْمُرَائِي مِنْ يَوْمِ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، وَهِيَ النِّيَّاتُ! فَأَفِيْقُوا مِنْ سُكْرِكُم، وَتُوْبُوْا مِنْ زَلَلِكُم، وَاسْتَقِيْمُوا عَلَىٰ الجَادَّةِ؛ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

٣٦١ - فصل: تخليط بعض العلماء والعبّاد

١٥٩٤ ـ رَأَيْتُ جُمْهُوْرَ النَّاس حَائِدِيْنَ عَنِ الشَّرِيْعَةِ، جَارِيْنَ عَلَىٰ مَا أَلِفُوْا مِنَ العَادَةِ وَقَدْ يَخْلُصُ مِنْهُم فَرِيْقَانِ: **عُلَمَاءُ وَعُبَّادٌ**.

١٥٩٥ ـ فَتَأَمَّلْتُ **جُمْهُوْرَ العُلَمَاءِ**، فَرَأَيْتُهُم فِي تَخْلِيْطٍ: **مِنْهُم** مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ مُعَامَلَاتِ الدُّنْيَا، وَيُعْرِضُ عَنْ مُعَامَلَاتِ الآخِرَةِ: إِمَّا لِجَهْلِهِ بِهَا، أو لِثِقَلِ أَمْرِهَا عَلَيْه؛ فَهُوَ لا يَجْرِي عَلَىٰ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يُوْجِبُهُ العِلْمُ، وَيَتَّبِعُ فِي البَاقِي العَادَاتِ! وَرُبَّمَا تَخَايَلَ أَنَّهُ يُسَامَحُ فِي الخَطَايا، لِكَوْنِهِ عَالِمًا؛ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ العِلْمَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ. **وَمِنْهُم**: مَنْ هُوَ وَاقِفٌ مَعَ صُوْرَةِ العِلْمِ، غَافِلٌ عَنِ المَقْصُوْدِ بِالعِلْمِ. **وَفِيْهِم**: مَنْ يُخَالِطُ السُّلْطَانَ، فَيَتَأَذَّى المُخَالِطُ بِمَا يَرَىٰ مِنَ الذُّنُوْبِ وَالظُّلْمِ، وَلَا يُمْكِنُهُ الإِنْكَارُ، وَرُبَّمَا مَدَحَ! **وَيَتَأَذَّى السُّلْطَانُ** بِصُحْبَتِهِ، فَيَقُوْلُ: لَوْلَا أَنِّي عَلَىٰ صَوَابٍ مَا جَالَسَنِي هٰذَا! **وَيَتَأَذَّى العَوَامُّ**، فَيَقُوْلُوْنَ: لَوْلَا أَنَّ أَمْرَ السُّلْطَانِ قَرِيْبٌ؛ مَا خَالَطَهُ هٰذَا العَالِمُ!

وَرَأَيْتُ الأَشْرَافَ يَتِقُوْنَ بِشَفَاعَةِ آبَائِهِم، وَيَنْسَوْنَ أَنَّ اليَهُوْدَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ!

١٥٩٦ ـ وَأَمَّا الفَرِيْقُ الثَّانِي، **وَهُمُ العُبَّادُ**؛ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَهُمْ فِي تَخْلِيْطٍ: أَمَّا الصَّحِيْحُو القَصْدِ مِنْهُم؛ فَعَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ فِي أَكْثَرِ عَمَلِهِم: قَدْ وَضَعَ لَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ المُتَقَدِّمِيْنَ كُتُبًا فِيْهَا دَفَائِنُ قَبِيْحَةٌ، وَأَحَادِيْثُ غَيْرُ صَحِيْحَةٍ، وَيَأْمُرُوْنَ فِيْهَا بِأَشْيَاءَ

تُخَالِفُ الشَّرِيْعَةَ؛ مِثْلَ كُتُبِ الحَارِثِ المُحَاسِبِيِّ، وَأبي عَبْدِ اللهِ التِّرْمِذِيِّ[1]، و(قُوْتِ القُلُوبِ) لأبي طَالِبٍ المَكِّيِّ، وَكِتَابِ «الإِحْيَاءِ» لِأَبِي حَامِدٍ الطُّوْسِيِّ؛ فَإِذَا فَتَحَ المُبْتَدِئُ عَيْنَهُ، وَهَمَّ بِسُلُوْكِ الطَّرِيْقِ بِهٰذِهِ الكُتُبِ؛ حَمَلَتْهُ[2] إِلىٰ الخَطَايَا؛ لِأَنَّهُم قَدْ بَنَوْا عَلىٰ أَحَادِيْثَ مُحَالَةٍ[3]. وَيَذُمُّوْنَ الدُّنْيَا، وَلا يَدْرُوْنَ مَا المَذْمُوْمُ مِنْهَا؟ فَيَتَصَوَّرُ المُبْتَدِئُ ذَمَّ ذَاتِ الدُّنيا، فَيَهْرُبُ المُنْقَطِعُ إِلى الجَبَلِ، وَرُبَّمَا فَاتَتْهُ الجَمَاعَةُ والجُمُعَةُ، وَيَقْتَصِرُ عَلىٰ البَلُّوْطِ والكُمَّثْرَى[4] فَيُوْرِثُهُ القُوْلَنجَ، وَيَقْنَعُ بَعْضُهُمْ بِشُرْبِ اللَّبَنِ، فَيَنْحَلُّ الطَّبْعُ، أَوْ يَأْكُلُ البَاقِلّاءَ والعَدَسَ فَيَحْدُثُ لَهُ قَرَاقِرُ[5]!!

١٥٩٧ ـ وإِنَّما يَنْبَغِي لِقَاصِدِ الحَجِّ أَنْ يَرْفُقَ أَوَّلًا بِالنَّاقَةِ لِيَصِلَ، أَلَا تَرَىٰ للفَطِنِ مِنَ الأَتْرَاكِ، يَهْتَمُّ بِفَرَسِهِ قَبْلَ تَحْصِيْلِ قُوْتِ نَفْسِهِ؟!

١٥٩٨ ـ وَرُبَّمَا تَصَدَّى القَاصُّ لِشَرْحِ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنَ السَّلَفِ وَالمُتَزَهِّدِيْنَ، فَيَتْبَعُهُم المُرِيْدُ، فَيَتَأَذَّىٰ بِذٰلِكَ! وَمَتَىٰ رَدَدْنا ذٰلِكَ المَنْقُوْلَ، وَبَيَّنَّا خَطَأَ فَاعِلِهِ؛ قَالَ الجُهَّالُ: أَتَرُدُّ عَلىٰ الزُّهَّادِ؟! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي اتِّبَاعُ الصَّوَابِ، وَلا يُنْظَرُ إِلىٰ أَسْمَاءِ المُعَظَّمِيْنَ فِي النُّفوسِ؛ فإِنّا نَقُوْلُ: قَالَ **أَبُوْ حَنِيْفَةَ**: ثُمَّ يُخَالِفُهُ **الشَّافِعِيّ**! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَن يُتَّبَعَ الدَّلِيْلُ.

١٥٩٩ ـ قَالَ **المِرْوَذِيُّ**: مَدَحَ **أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل** النِّكَاحَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قَالَ **إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ**، فَصَاحَ وَقَالَ: **وَقَعْنا فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ! عَلَيْكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُه.**

١٦٠٠ ـ وَتَكَلَّمَ **أَحْمَدُ فِي الحَارِثِ المُحَاسِبِيِّ**، وَرَدَّ عَلىٰ **سَرِيٍّ السَّقطِيِّ** حِيْنَ قَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ الحُرُوْفَ؛ وَقَفَ الأَلِفُ، وسَجَدَتِ البَاءُ! فَقَالَ: **نَفِّرُوْا النَّاسَ عَنْهُ. فالحَقُّ لا يَنْبَغِي أَنْ يُحَابِي؛ فَإِنَّهُ جِدٌّ.**

١٦٠١ ـ وَإِنِّي أَرَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدْ حَادُوْا عَنِ الشَّرِيْعَةِ، وَصَارَ كَلَامُ المُتَزَهِّدِيْنَ

---

(١) محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي: محدّث صوفي، توفي نحو ستة (٣٢٠هـ).

(٢) في الأصل: فحملته، وهو تصحيف.

(٣) **محالة**: باطلة وموضوعة.

(٤) إجاص.

(٥) أصوات في الأمعاء لوجود رياح.

كَأَنَّه شَرِيْعَةٌ لَهُمْ! فَيُقَالُ: قَالَ أَبُوْ طَالِبٍ المَكّيُّ: كَانَ مِنَ السَّلَفِ مَنْ يَزِنُ قُوْتَه بِكَرَبَةٍ[1]، فَيَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ!!.

وهٰذا شَيْءٌ مَا عَرَفَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ وَلَا أَصْحَابُهُ، وَإِنَّمَا كَانُوْا يَأْكُلُوْنَ دُوْنَ الشِّبَعِ؛ فَأَمَّا الحَمْلُ عَلىٰ النَّفْسِ بِالْجُوْعِ؛ فَمَنْهِيٌّ عنهُ.

١٦٠٢ ـ وَيَقُوْلُ: قَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ لِسُفْيَانَ: إِذَا كُنْتَ تَشْرَبُ المَاءَ البَارِدَ؛ مَتَىٰ تُحِبُّ المَوْتَ؟! وَكَانَ مَاؤُهُ فِي دَنٍّ[2]!».

وَمَا عَلِمَ أَنَّ لِلنَّفْسِ حَظًّا، وَأَنَّ شُرْبَ المَاءِ الحَارِّ يُرَهِّلُ[3] المَعِدَةَ، وَيُؤْذِي، وَأَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يُبَرِّدُ المَاءَ.

١٦٠٣ ـ وَيَقُوْلُ آخَرُ مِنْهُم: مُنْذُ خَمْسِيْنَ سَنَةً أَشْتَهِي الشِّواءَ، مَا صَفَا لِي دِرْهَمُهُ!! وَيَقُوْلُ آخَرُ: أَشْتَهِي أَنْ أَغْمِسَ جَزَرَةً فِي دِبْسٍ؛ فَمَا صَحَّ لِي!!. أَتُرَاهُم أَرَادُوْا حَبَّةً مُنْذُ خَرَجَتْ مِنَ المَعْدِنِ[4] مَا دَخَلَتْ فِي شُبْهَةٍ؟! هٰذا شَيْءٌ مَا نَظَرَ فِيْهِ رَسُوْلُ الله ﷺ! وَإِنْ كَانَ الوَرَعُ حَسَنًا، وَلٰكِنْ لا عَلىٰ حَمْلِ المَشَاقِّ الشَّدِيْدَةِ.

١٦٠٤ ـ وَهٰذَا بِشْرٌ الحَافِي يَقُوْلُ: لا أُحَدِّثُ؛ لِأَنِّي أَشْتَهِي أَنْ أُحَدِّثَ!!. وَهٰذَا تَعْلِيْلٌ لا يَصْلُحُ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ مَأْمُوْرٌ بِالنِّكَاحِ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ المُشْتَهَى.

١٦٠٥ ـ وَكَانَ بِشْرٌ حَافِيًا، حَتَّىٰ قِيْلَ لَهُ: الحَافِي! وَلَوْ سَتَرَ أَمْرَهُ بِنَعْلَيْنِ؛ كَانَ أَصْلَحَ، والحَفَاءُ يُؤْذِي العَيْنَ، وَلَيْسَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا[5] فِيْ شَيْءٍ؛ فَقَدْ كَانَ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ نَعْلَانِ[6].

١٦٠٦ ـ وَمَا كَانَتْ سِيْرَةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَلىٰ مَا المُتَزَهِّدُوْنَ عَلَيْهِ اليَوْمَ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، وَيَمْزَحُ، وَيَخْتَارُ المُسْتَحْسَنَاتِ، وَيُسَابِقُ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَكَانَ يَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَيُحِبُّ الحَلْوَىٰ، وَيُسْتَعْذَبُ لَهُ المَاءُ، وعلى هٰذا كان طريقةُ أصحابِهِ.

---

(١) **الكربة**: أصول سعف النخيل وجمعها كَرَب، وتسمّى أيضًا الكرانيف.
(٢) **الدن**: الجرة الكبيرة.
(٣) **يرهل المعدة**: يوسعها ويرخيها.
(٤) **المعدن**: المنجم.
(٥) كذا في الأصل، ولعله: الدين.
(٦) رواه البخاري (٣١٠٧).

١٦٠٧ ـ **فَأَظْهَرَ المُتَزَهِّدُوْنَ طَرَائِقَ كَأَنَّهَا ابْتِدَاءُ شَرِيْعَةٍ، وَكُلُّهَا عَلىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، وَيَحْتَجُّوْنَ بِقَوْلِ المُحَاسِبِيِّ والمَكِّيِّ! وَلا يَحْتَجُّ أَحدٌ مِنْهُم بِصَحَابِيٍّ ولا تَابِعِيٍّ، وَلا بِإِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ!! فَإِنْ رَأَوْا عَالِمًا لَبِسَ ثَوْبًا جَمِيْلًا، أَوْ تَزَوَّجَ مُسْتَحْسَنَةً، أَوْ أَفْطَرَ بِالنَّهَارِ، أَوْ ضَحِكَ، عَابُوْهُ!!**

١٦٠٨ ـ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ صَحَّ قَصْدُهُ مِنْهُم عَلىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ: لِقِلَّةِ عِلْمِهِم، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُم **يَقُوْلُ**: مُنْذُ ثَمَانِيْنَ سَنَةً مَا اضْطَجَعْتُ!. **وَيَقُوْلُ آخَرُ**: حَلَفْتُ لا أَشْرَبُ المَاءَ سَنَةً[1]!!. **وهٰؤلاءِ عَلىٰ غَيْرِ الصَّوابِ؛ فَإِنَّ لِلنَّفْسِ حَقًّا.**

١٦٠٩ ـ فَأَمَّا مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ، مِمَّنَ نَافَقَ وَرَاءىٰ لِاجْتِلَابِ الدُّنْيَا، وتَقْبِيْلِ الأَيْدِي؛ فَلَا كَلَامَ مَعَهُ، وَهُمْ **جُمْهُورُ المُتَصَوِّفَةِ**؛ فَإِنَّهُم رَقَّعوا الثِّيابَ المُلوَّنَةَ؛ لِيَرَاهُمُ النَّاسُ بِعَيْنِ التَّرْكِ لِلزِّيْنَةِ، وَمَا مَعَهُمْ أَحْسَنُ مِنَ السقلاطون[2]!! وَإِنَّمَا رَقَّعَ القُدَمَاءُ لِلفَقْرِ. فَهُمْ فِي اللَّذَّاتِ. وَجَمْعِ المَالِ، وَأَخْذِ الشُّبُهَاتِ، وَاسْتِعْمَالِ الرَّاحَةِ واللَّعِبِ، وَمُخَالَطَةِ السَّلاطِيْنِ. وَهؤلاءِ قَدْ كَشَفُوا القِنَاعَ، وَبَايَنُوْا زُهْدَ أَوَائِلِهِم!! بَلَى؛ **أَعْجَبُ مِنْهُم مَنْ يُنْفِقُ هٰذَا عَلَيْهِم!**

٣٦٢ - فصل: جعل الله لأحوال الآدمي أمثلة ليعتبر بها

١٦١٠ ـ إِنَّ الله ﷻ جَعَلَ لِأَحْوَالِ الآدَمِيِّ أَمْثِلَةً لِيَعْتَبِرَ بِهَا: فَمِنْ أَمْثِلَةِ أَحْوَالِهِ **القَمَرُ**، الَّذِي يَبْتَدِئُ صَغِيْرًا، ثُمَّ يَتَكَامَلُ بَدْرًا، ثُمَّ يَتَنَاقَصُ بِانْمحَاقٍ، وَقَدْ يَطْرَأُ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُهُ كالكُسُوْفِ؛ فَكَذٰلِكَ **الآدَمِيُّ** أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ مِنَ الفَسَادِ إلى الصَّلَاحِ؛ فَإِذَا تَمَّ؛ كَانَ بِمَنْزِلَةِ البَدْرِ الكَامِلِ، ثُمَّ تَتَنَاقَصُ أَحْوَالُهُ بِالضَّعْفِ، فَرُبَّمَا هَجَمَ المَوْتُ قَبْلَ ذٰلِكَ هُجُوْمَ الكُسُوْفِ عَلىٰ القَمَرِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالمَرْءُ مِثْلَ هِلَالٍ عِنْدَ طَلْعَتِهِ ... يُبْدُو ضَئِيْلًا لَطِيْفًا ثُمَّ يَتَّسِقُ

---

(١) أي: لا يشرب الماء البارد.

(٢) **السقلاطون**: ضرب من الثياب. قال أبو حاتم: عرضته على رومية، وقلت لها: ما هذا؟ فقالت: سِجِلّاطُسْ.

يَـزْدَادُ حَـتَّـى إِذَا مَـا تَـمَّ أَعْـقَـبَـهُ كَرُّ الجَدِيْدَيْنِ نَقْصًا، ثُمَّ يَنْمَحِقُ[1]

١٦١١ ـ وَمِنْ أَمْثِلَةِ حَالِهِ **دُوْدُ القَزِّ**؛ فَإِنَّهُ يَكُوْنُ حَيًّا[2] إِلَىٰ أَنْ يَبْتَدِئَ نَبَاتُ قُوْتِهِ، وَهُوَ وَرَقُ الفِرْصَادِ[3]؛ فَإِذَا اخْضَرَّ الوَرَقُ؛ دَبَّتِ الرُّوْحُ فِيْهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ كَانْتِقَالِ الطِّفْلِ، ثُمَّ يَرْقُدُ كَغْفَلَةِ الآدَمِيِّ عَنِ النَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ، ثُمَّ يَنْتَبِهُ، فَيَحْرِصُ عَلَىٰ الأَكْلِ كَحِرْصِ الشَّرِهِ عَلَىٰ تَحْصِيْلِ الدُّنيا، ثُمَّ يُسْدِي[4] عَلَىٰ نَفْسِهِ كَمَا يَحْطِبُ الآدَمِيُّ الأَوْزَارَ عَلَىٰ دِيْنِهِ، فَيَرْتَهِنُ في ذٰلِكَ الحَبْسِ، كَمَا يَرْتَهِنُ المَيِّتُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ يَقْرُضُ، فَيَخْرُجُ خَلْقًا آخَرَ، كَمَا تُنْشَرُ المَوْتَىٰ غُرْلًا[5] بُهْمًا[6].

وَقَدْ دَلَّهُ عَلَىٰ البَعْثِ تَكَوُّنُ النُّطْفَةِ كَمَيِّتٍ، ثُمَّ تَصِيْرُ آدَمِيًّا، وَإِلْقَاءُ الحَبِّ تَحْتَ الأَرْضِ فَيَفْسُدُ، ثُمَّ يَهْتَزُّ خَضِرًا.

إِذَا الـمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِـكْـرَه فَـفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِـبْـرَه

٣٦٣ - فصل: إنما فضل العقل بتأمل العواقب

١٦١٢ ـ إِنَّمَا فَضُلَ العَقْلُ بِتَأَمُّلِ العَوَاقِبِ؛ فَأَمَّا القَلِيْلُ العَقْلِ؛ فَإِنَّهُ يَرَىٰ الحَالَ الحَاضِرَةَ، وَلا يَنْظُرُ إِلَىٰ عَاقِبَتِهَا؛ فَإِنَّ اللِّصَّ يَرَىٰ أَخْذَ المَالِ، وَيَنْسَىٰ قَطعَ اليَدِ! والبَطَّالَ يَرَىٰ لَذَّةَ الرَّاحَةِ، وَيَنْسَى مَا تَجْنِي مِنْ فَوَاتِ العِلْمِ وَكَسْبِ المَالِ؛ فَإِذَا كَبُرَ فَسُئِلَ عَنْ عِلْمٍ؟ لَمْ يدْرِ، وَإِذَا احْتَاجَ؛ سَأَلَ، فَذَلَّ؛ فَقَدْ أَرْبَىٰ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ التَّأَسُّفِ عَلَىٰ لَذَّةِ البَطَالَةِ، ثُمَّ يَفُوْتُهُ ثَوَابُ الآخِرَةِ بِتَرْكِ العَمَلِ فِي الدُّنْيَا. وَكَذٰلِكَ **شَارِبُ الخَمْرِ**؛ يَلْتَذُّ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِنَ الآفَاتِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ! وَكَذٰلِكَ **الزَّنَا**؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَرَىٰ قَضَاءَ الشَّهْوَةِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِنْ فَضِيْحَةِ الدُّنيا وَالحَدِّ، وَرُبَّما كَانَ لِلْمَرْأَةِ زَوْجٌ، فَأَلْحَقَتِ الحَمْلَ مِنْ هٰذَا بِهِ، وَتَسَلْسَلَ الأَمْرُ.

---

(١) **الجديدان**: الليل والنهار.

(٢) كذا في الأصل: ولعلها حبًا بالباء، أي: بَيْضًا.

(٣) **الفرصاد**: التوت الأحمر.

(٤) **يسدي**: يغزل الخيوط ويلفها على نفسه كالسدى.

(٥) **غرلاً**: غير مختونين.

(٦) **بهمًا**: سالمين من الأمراض والآفات.

فَقِسْ عَلَىٰ هٰذِهِ النَّبْذةِ، وَانْتَبِهْ لِلْعَوَاقِبِ، وَلَا تُؤْثِرْ لَذَّةً تُفَوِّتُ خَيْرًا كَثِيْرًا، وَصَابِرِ المَشَقَّةَ؛ تُحَصِّلْ رِبْحًا وَافِرًا.

٣٦٤ - فصل: هيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات

١٦١٣ - لَيْسَ فِي الدُّنيا عَيْشٌ إِلَّا **لِعَالِمٍ** أَوْ **زَاهِدٍ**. بَلَىٰ؛ قَدْ يَقَعُ فِي صَفَاءِ حَالِهِما كَدَرٌ، وَهُوَ أَنَّ **العَالِمَ** يَشْتَغِلُ بِالعِلْمِ، أَوْ بِالانْقِطَاعِ عَنِ الكَسْبِ، وَقَدْ تَكُوْنُ لَهُ عَائِلَةٌ؛ فَرُبَّما تَعَرَّضَ بِالسُّلْطَانِ فَفَسَدَ حَالُه. وكذٰلِكَ **الزَّاهِدُ**.

١٦١٤ - فَيَنْبَغِي **لِلْعَالِمِ وَالعَابِدِ** أَنْ يَتَحَرَّكا في مَعَاشٍ؛ كَنَسْخٍ بِأُجْرَةٍ، أَوْ عَمَلِ الخُوْصِ[1]. وَ[2]إِنْ فُتِحَ لَهُ بِشَيْءٍ؛ اقْتَنَعَ بِاليَسِيْرِ؛ فَلَا يَسْتَعْبِدُهُ أَحَدٌ؛ كَمَا كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَهُ أُجْرَةٌ لَعَلَّهَا لا تَبْلُغُ دِيْنَارًا يَتَقَوَّتُ بِهَا، وَمَتَىٰ لَمْ يَقْنَعْ؛ أَفْسَدَتْ مُخَالَطَةُ السَّلاطِيْنِ وَالعَوَامِّ دِيْنَهُ.

١٦١٥ - **وَفِي النَّاسِ** مِنْ يَرِيْدُ التَّوَسُّعَ فِي المَطَاعِمِ، **وَمِنْهُم**: مَنْ **لا** يُوَافِقُهُ خَشِنُ العَيْشِ، **وَهَيْهَاتَ أَنْ يَصِحَّ الدِّيْنُ مَعَ تَحْصِيْلِ اللَّذَّاتِ!**.

١٦١٦ - وَإِذَا قَنِعَ العَالِمُ والزَّاهِدُ بِمَا يَكْفِي؛ لَمْ يَتَبَذَّلْ [أحدهُما] لِلسُّلْطَانِ، وَلَمْ يُسْتَخْدَمْ بِالتَّرَدُّدِ إِلىٰ بَابِهِ، وَلَمْ يَحْتَجِ الزَّاهِدُ إِلىٰ تَصَنُّعٍ. وَالعَيْشُ اللَّذِيْذُ لِلْمُنْقَطِعِ، الَّذِي لَا يُتَبَذَّلُ بِهِ، وَلَا يُحَمَّلُ مِنَّةً.

٣٦٥ - فصل: تفاوت الناس في الفهوم

١٦١٧ - مَا أَكْثَرَ تَفَاوُتَ النَّاسِ فِي الفُهُوْمِ! حَتَّى العُلَمَاءُ يَتَفَاوَتُوْنَ التَّفَاوُتَ الكَثِيْرَ فِي الأُصُوْلِ وَالفُرُوْعِ: فَتَرَىٰ أَقْوَامًا يَسْمَعُوْنَ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ، فَيَحْمِلُوْنَهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيْهِ الحِسُّ؛ **كَقَوْلِ قَائِلِهِم**: يَنْزِلُ بِذَاتِهِ إِلىٰ السَّمَاءِ، وَيَنْتَقِلُ!! وَهٰذَا فَهْمٌ رَدِيْءٌ؛ لِأَنَّ المُنْتَقِلَ يَكُوْنُ مِنْ مَكَانٍ إِلىٰ مَكَانٍ، وَيُوْجِبُ ذٰلِكَ كَوْنَ المَكَانِ أَكْبَرَ[3]

---

(١) **الخوص**: ورق النخل.
(٢) في الأصل: أو إن.
(٣) في الأصل: أكثر، وهو تصحيف.

مُنْهُ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ الحَرَكَةُ، وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ عَلىٰ الحَقِّ ﷻ.

١٦١٨ - وَأَمّا فِي الفُرُوْعِ: فَكَمَا يُرْوَىٰ عَنْ دَاوُدَ[١]: أَنَّهُ قَالَ فِيْ قَوْلِهِ ﷺ: «**لَا يَبُوْلَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ**»[٢]. فَقَالَ: إِنْ بَالَ غَيْرُه؛ جَازَ!! فَمَا يَفْهَمُ المُرَادَ مِنَ التَّنْجِيْسِ، بَلْ يَأْخُذُ بِمُجَرَّدِ اللَّفْظِ!! وَكَذٰلِكَ يَقُوْلُ: لَحْمُ الخِنْزِيْرِ حَرَامٌ: لا جِلْدُهُ!! نَعُوْذُ بِالله مِنْ سُوْءِ الفَهْمِ.

١٦١٩ - وَكَذٰلِكَ يَتَفَاوَتُ **الشُّعَرَاءُ** الَّذِيْنَ شَغَلَهُمُ التَّفَطُّنُ لِدَقَائِقِ الأَحْوَالِ: كَقَوْلِ قَائِلِهِم[٣]:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَىٰ وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَالجَفَنَاتُ عَدَدٌ يَسِيْرٌ؛ فَلَوْ قَالَ: الجِفَانُ؛ لَكَانَ أَبْلَغَ! وَلَوْ قَالَ: بِالدُّجَىٰ؛ لَكَانَ أَحْسَنَ! وَيَقْطُرْنَ دَلِيْلٌ عَلىٰ القِلَّةِ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُ القَائِلِ[٤]:

هَمُّهَا العِطْرُ وَالفِرَاشُ، وَيَعْلُوْ هَا لُجَيْنٌ وَلُؤْلُؤٌ مَنْظُوْمُ

وَهٰذَا قَاصِرٌ؛ فَإِنَّهُ لَوْ فَعَلَتْ هٰذَا سَوْدَاءُ؛ لَحَسَّنَها. إِنَّمَا المَادِحُ هَوَ القَائِلُ[٥]:

أَلَمْ تَرَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طِيْبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وَكَذَا قَوْلُ القَائِلِ:

أَدْعُوْ إِلىٰ هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي حَتىٰ إِذَا قُلْتُ هٰذَا صَادِقٌ نَزَعَا

وَلَوْ كَانَ صَادِقًا فِي المُحَبَّةِ لَمَا كَانَ لَهُ قَلْبٌ يُخَاطِبُهُ، وَإِذَا خَاطَبَهُ فِي الهَجْرِ؛ لَمْ يُوافِقْهُ! إِنّمَا المُحِبُّ الصَّادِقُ هُوَ القَائِلُ:

يَقُوْلُوْنَ: لَوْ عَاتَبْتَ قَلْبَكَ لَارْعَوَىٰ فَقُلْتُ: وَهَلْ لِلْعَاشِقِيْنَ قُلُوْبُ؟

وَمِثْلُ هٰذَا إِذَا نُوْقِشَ كَثِيْرٌ. فَأَقَلُّ مَوْجُوْدٍ فِي النَّاسِ الفَهْمُ والغَوْصُ عَلىٰ دَقَائِقِ المَعَانِي.

---

(١) داود بن علي الأصبهاني، رئيس أهل الظاهر.

(٢) رواه البخاري (٢٣٩)، ومسلم (٢٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، ديوانه ص(٤٢٧).

(٤) هو حسان، ديوانه (٤٣٣) وقد وقع في الأصل: منظوم ولؤلؤ، والتصويب من الديوان.

(٥) هو امرؤ القيس رئيس الشعراء في الجاهلية. ديوانه ص(٤١). وفي الأصل (تر أني) والتصويب من الديوان.

٣٦٦ - فصل: لذة الدنيا شيبت بالنُّغَص

١٦٢٠ ـ مَنْ تَأَمَّلَ الدُّنْيا؛ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيْهَا لَذَّةٌ أَصْلًا؛ فَإِنْ وُجِدَتْ لَذَّةٌ؛ شِيْبَتْ بالنُّغَصِ، الّتِي تَزِيْدُ عَلىٰ اللَّذَّةِ أَضْعَافًا.

١٦٢١ ـ فَمِنَ اللَّذَّاتِ **النِّسَاءُ**؛ فَرُبَّمَا لَمْ تَثبُتِ المُسْتَحْسَنةُ، وَرُبَّمَا لَمْ تُحِبَّ الزَّوْجَ؛ فَمَتَىٰ عَلِمَ ذٰلِكَ؛ يَعْزِلُ عَنْهَا، وَرُبَّما خَانَتْ، وَذٰلِكَ الهَلَاكُ: فَإِنْ تَمَّتِ المُرَادَاتُ؛ فَذِكْرُ الفِرَاقِ زَائِدٌ فِي التَّأَلُّمِ عَلىٰ الالْتِذَاذِ.

١٦٢٢ ـ وَمِنَ اللَّذَّاتِ **الوَلَدُ**: وَمُقَاسَاةُ **البِنْتِ** إِلىٰ أَنْ تَتَزَوَّجَ؛ وَمَا تَلْقَىٰ مِنْ زَوْجِهَا؛ وَخَوْفُ عَارِهَا: مِحَنٌ قَبِيْحَةٌ. **وَالابْنُ** إِنْ مَرِضَ ذَابَ الفُؤَادُ، وَإِنْ خَرَجَ عَنْ حَدِّ الصَّلاحِ زَادَ الأَسَفُ، وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا، فَمُرَادُهُ هَلَاكُ الأَبِ، ثُمَّ إِنْ تَمَّ المُرَادُ؛ فَذِكْرُ فِرَاقِهِ يُذِيْبُ القُلُوْبَ.

١٦٢٣ ـ وَلَوْ أَنْ فَاسِقًا أَحَبَّ بَعْضَ المُرْدَانِ: انْهَتَكَ عِرْضُهُ فِي الدُّنيا، وَذَهَبَ دِيْنُهُ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ تَتَغَيَّرَ حِلْيَتُهُ، فَيَصِيْرَ مَبْغُوْضًا، مَعَ مَا سَبَقَ مِنَ الهُتْكَةِ والإِثْمِ. وَكَمْ قَدْ غَلَبَتْ شَهْوَةُ رَجُلٍ وَطِئَ الجَوَارِيَ السُّوْدَ، فَجَاءَ الوَلَدُ أَسْوَدَ؛ فَبَقِيَ عَارًا عَلَيْهِ[1]

١٦٢٤ ـ وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ الالْتِذَاذُ بِالمَالِ، وَفِي تَحْصِيْلِهِ آثَامٌ، وَفِرَاقُهُ حَسْرَةٌ، وَذَهَابُ العُمُرِ فِيْهِ غَبْنٌ.

وَهٰذَا أُنْمُوْذَجٌ لِمَا لَمْ يُذْكَرْ! فَيَنْبَغِي لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنْ يَأْخُذَ الضَّرُوْرِيَّ الّذِي يَمِيْلُ إِلَىٰ سَلَامَةِ الدِّيْنِ وَالبَدَنِ والعَافِيَةِ، وَيَهْجُرَ الهَوَىٰ الّذِي نُغَصُهُ تَتَضَاعَفُ عَلَىٰ لَذَّتِهِ.

١٦٢٥ ـ وَمَنْ صَبَرَ عَلىٰ مَا يَكْرَهُ قَصْدَ النَّفعِ فِي العَاقِبَةِ؛ الْتَذَّ أَضْعَافًا؛ كَطَالِبِ العِلْمِ؛ فَإِنَّه يَتْعَبُ يَسِيْرًا، وَيَنَالُ خَيْرَ الدَّارَيْنِ، مَعَ سَلَامةِ العَاقِبَةِ. وَلَذَّةُ البَطَالَةِ تَعْقُبُ عَدَمَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، فَيَزِيْدُ الأَسَىٰ عَلَىٰ اللَّذَّةِ أَضْعَافًا.

---

(١) يعني على الولد، إذ يعرف بلونه أن أمّه أمةٌ لا حرة.

فَالله الله أَنْ يَغْلِبَكَ هَوَاكَ العَاجِلُ، وَمَتَىٰ هَمَّ الهَوَىٰ بِالتَّوَثُّبِ؛ فَامْنَعْهُ؛ وَزِنْ عَاجِلَهُ بِآجِلِهِ. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٣٦٧ - فصل: من حيل إبليس

١٦٢٦ ـ رَأَيْتُ إِبْلِيْسَ قَدِ احْتَالَ بِفُنُوْنِ الحِيَلِ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَأَمَالَ أَكْثَرَهُم عَنِ العِلْمِ الَّذِي هُوَ مِصْبَاحُ السَّالِكِ، فَتَرَكَهُم يَتَخَبَّطُوْنَ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ، وَشَغَلَهُم بِأُمُوْرِ الحِسِّ[1]؛ [فَهُم يُحَسِّنُوْنَ مَا يُحَسِّنُه الحِسُّ]، وَلَا يَلْتَفِتُوْنَ إِلَىٰ مَشُوْرَةِ العَقْلِ. فَإِذَا ضَاقَ بِأَحَدِهِم عَيْشُهُ، أَوْ نُكِبَ؛ اعْتَرَضَ فَكَفَرَ: **فَمِنْهُم** مَنْ يَنْسِبُ ذٰلِكَ إِلَىٰ الدَّهْرِ، **وَمِنْهُم** مِنْ يَسُبُّ الدُّنْيا! وَهٰذَا تَسْفِيفٌ[2]؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ وَالدُّنْيا لا يَفْعَلانِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَيْبٌ لِلْمُقَدِّرِ. **وَمِنْهُم** مَنْ يُخْرِجُهُ الأَمْرُ إِلَىٰ جُحْدِ الحِكْمَةِ، **فَيَقُوْلُ**: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي نَقْضِ المَبْنَىٰ؟!

١٦٢٧ ـ وَزَعَمَ بَعْضُهُم أَنَّهُ لا يُتَصَوَّرُ عَوْدُ المَنْقُوْضِ، وَأَنْكَرُوا البَعْثَ، **وَيَقُوْلُوْنَ**: مَا جَاءَ مِنْ ثَمَّ أَحَدٌ! وَنَسُوْا أَنَّ الوُجُوْدَ مَا انْتَهَىٰ بَعْدُ، وَلَوْ خَلَّفَنَا[3]؛ لَصَارَ الإِيْمَانُ بِالغَيْبِ عِيَانًا، وَلا يَصْلُحُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَىٰ الإِحْيَاءِ بِالأَحْيَاءِ.

١٦٢٨ ـ ثُمَّ نَظَرَ إِبْلِيْسُ، فَرَأَىٰ فِي المُسْلِمِيْنَ قَوْمًا فِيْهِم فِطْنَةٌ، فَأَرَاهُمْ أَنَّ الوُقُوفَ عَلَىٰ ظَوَاهِرِ الشَّرِيْعَةِ حَالَةٌ يُشَارِكُهُمْ فِيْهَا العَوَامُّ، فَحَسَّنَ لَهُمْ عُلُوْمَ الكَلَامِ، وَصَارُوا يَحْتَجُّوْنَ بِقَوْلِ **بُقْرَاطَ**[4] **وَجَالِيْنُوْسَ وَفِيْثَاغُوْرس**[5]!!

وَهٰؤلاءِ لَيْسُوْا بِمُتَشَرِّعِيْنَ، وَلا تَبِعُوْا **نَبِيَّنا** ﷺ. وَإِنَّمَا قَالُوْا بِمُقْتَضَى مَا سَوَّلَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم.

---

(١) في الأصل: الحسن، وهو تصحيف.

(٢) **التسفيف**: والإسفاف: السفه والتهافت، وفي الأصل: تسقيف، وهو تصحيف.

(٣) أي: بعثنا جيلًا بعد جيل كما هو الموت. وفي الأصل: حلفت.

(٤) طبيب يوناني اشتهر بقسمه الذي اعتاد أن يقسمه الأطباء قبل مزاولتهم مهنة الطب. انظر أخباره في: عيون الأنباء (٤٣ ـ ٦١).

(٥) فيزيائي يوناني عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

١٦٢٩ ـ وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ إِذَا نَشَأَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ؛ شَغَلُوْهُ بِحِفْظِ القُرْآنِ وَسَمَاعِ الحَدِيْثِ، فَيَثْبُتُ الإِيْمَانُ فِي قَلْبِهِ؛ فَقَدْ تَوَانَى النَّاسُ عَنْ هٰذَا، فَصَارَ الوَلَدُ الفَطِنُ يَتَشَاغَلُ بِعُلُوْمِ الأَوَائِلِ، وَيَنبُذُ أَحَادِيْثَ الرَّسُوْلِ ﷺ، وَيَقُوْلُ: أَخْبَارُ آحَادٍ! وَأَصْحَابُ الحَدِيْثِ عِنْدَهُم يُسَمَّوْنَ: حَشْوِيَّةً!!

١٦٣٠ ـ وَيَعْتَقِدُ هؤلاءِ أَنَّ العِلْمَ الدَّقِيْقَ عِلْمُ الطَّفْرَةِ والهَيولىٰ، وَالجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ. ثُمَّ يَتَصَاعَدُوْنَ إِلىٰ الكَلَامِ فِي صِفَاتِ الخَالِقِ، فَيَدْفَعُوْنَ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِوَاقِعَاتِهِم. فَيَقُوْلُ المُعْتَزِلَةُ: إِنَّ اللهَ لا يُرَىٰ؛ لِأَنَّ المَرْئِيَّ يَكُوْنُ فِي جِهَةٍ، وَيُخَالِفُوْنَ قَوْلَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ، لا تُضَامُوْنَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[1]؛ فَأوجبَ هٰذا الحديثُ إيثارَ رؤيتِهِ، وإن عجزْنا عن فهم كيفيَّتِها.

١٦٣١ ـ وَقَدْ عُزِلَ هؤلاءِ الأَغْبِيَاءُ عَنِ **التَّشَاغُلِ بِالقُرْآنِ**، وَقَالُوْا: مَخْلُوْقٌ! فَزَالَتْ حُرْمَتُهُ مِنَ القُلُوْبِ. **وَعَنِ السُّنَةِ**، وَقَالُوْا: أَخْبَارُه آحَادٍ! وَإِنَّمَا مَذَاهِبُهُم السَّرِقَةُ مِنْ بُقْرَاطَ وَجَالِيْنُوْسَ. وَقَدِ اسْتَفَادَ مَنْ تَبِعَ الفَلَاسِفَةَ أَنَّهُ يُرَفِّهُ نَفْسَه عَنْ تَعَبِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ!

١٦٣٢ ـ وَقَدْ كَانَ كِبَارُ العُلَمَاءِ يَذُمُّوْنَ عِلْمَ الكَلَامِ، حَتَّىٰ قَالَ الشَّافِعِيُّ: حُكْمِي فِيْهِم أَنْ يُرْكَبُوا عَلىٰ البِغَالِ، وَيُشَهَّرُوْا، وَيُقَالَ: هٰذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واشْتَغَلَ بِالكَلَامِ. وَقَد آلَ بِهِمُ الأَمْرُ إِلىٰ أَنِ اعْتَقَدُوْا أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ تَحْرِيرَ دَلِيْلِ التَّوْحِيْدِ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ!!

فَاللهَ اللهَ مِنْ مُخَالَطَةِ المُبْتَدِعَةِ، وَعَلَيْكُم بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ تَرْشُدُوْا.

٣٦٨ - فصل: اغتنام الزمان

١٦٣٣ ـ رَأَيْتُ العَادَاتِ قَدْ غَلَبَتِ النَّاسَ فِي تَضْيِيْعِ الزَّمَانِ، وَكَانَ القُدَمَاءُ يُحَذِّرُوْنَ مِنْ ذٰلِكَ.

١٦٣٤ ـ قَالَ **الفُضَيْلُ**: أَعْرِفُ مَنْ يَعُدُّ كَلَامَهُ مِنَ الجُمُعَةِ إِلىٰ الجُمُعَةِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٢) ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

١٦٣٥ - وَدَخَلُوْا عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ السَّلَفِ، فَقَالَوْا: لَعَلَّنَا شَغَلْنَاكَ؟ فَقَالَ: أَصْدُقُكُمْ؛ كُنْتُ أَقْرَأُ، فَتَرَكْتُ القِرَاءَةَ لِأَجْلِكُم.

١٦٣٦ - وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَعَبِّدِيْنَ إِلىٰ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، فَرَأَىٰ عِنْدَهُ جَمَاعَةً، فَقَالَ: صِرْتَ مَنَاخَ البَطَّالِيْنَ؟ ثُمَّ مَضَىٰ وَلَمْ يَجْلِسْ.

١٦٣٧ - وَمَتَىٰ لانَ المَزُوْرُ؛ طَمِعَ فِيْهِ الزَّائِرُ، فَأَطَالَ الجُلُوْسَ، فَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ أَذًى.

١٦٣٨ - وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ قُعُوْدًا عِنْدَ مَعْرُوْفٍ، فَأَطَالُوْا، فَقَالَ: إِنَّ مَلَكَ الشَّمْسِ لا يَفْتُرُ فِي سَوْقِهَا؛ أَفَما تُرِيْدُوْنَ القِيَامَ؟!

١٦٣٩ - وَمِمَّنْ كَانَ يَحْفَظُ اللَّحَظَاتِ عَامِرُ بنُ عَبْدِ قَيْسٍ؛ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: قِفْ أُكَلِّمْكَ. قَالَ: فَأَمْسِكِ الشَّمْسَ.

١٦٤٠ - وَقِيْلَ لِكُرْزِ بْنِ وَبَرَةَ[1]: لَوْ خَرَجْتَ إِلىٰ الصَّحْرَاءِ؟ فَقَالَ: يَبْطُلُ الرُّوزْجَار[2].

١٦٤١ - وَكَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ يَسْتَفُّ الفَتِيْتَ[3]، وَيَقُوْلُ: بَيْنَ سَفِّ الفَتِيْتِ وَأَكْلِ الخُبْزِ قِرَاءَةُ خَمْسِيْنَ آيَةً.

١٦٤٢ - وَكَانَ عُثْمَانُ البَاقِلّاوِيُّ[4] دَائِمَ الذِّكْرِ لله تَعَالىٰ، **فَقَالَ**: إِنِّي وَقْتَ الإِفْطَارِ أُحِسُّ بِرُوْحِي كَأَنَّهَا تَخْرُجُ؛ لِأَجْلِ اشْتِغَالِي بِالأَكْلِ عَنِ الذِّكْرِ.

١٦٤٣ - وَأَوْصَىٰ بَعْضُ السَّلَفِ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: إِذَا خَرَجْتُم مِنْ عِنْدِي؛ فَتَفَرَّقُوا؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَقْرَأُ القُرْآنَ فِي طَرِيْقِهِ، وَمَتَىٰ اجْتَمَعْتُم؛ تَحَدَّثْتُم.

---

(١) الحارثي الكوفي نزيل جرجان، تابعي عابد زاهد.

(٢) قال النووي في بستان العارفين ص(٨٢) ط الجفان والجابي. الروزجار: هو براء مضمومة ثم واو ساكنة، ثم زاي ثم جيم ثم ألف ثم راء، وهو الذي يعمل في الطين بالمجرفة ونحوها، قلت: وهي حرفة يستطيع أن يفعلها كل إنسان لأنها لا تحتاج لمهارة أو خبرة ولذا يسمّى محترفها اليوم الفاعل والجمع فعلة. انظر: حاشية الفصل (٣٤١). وجاء في حاشية التمثيل والمحاضرة ص(٢٠٠): الرُّوزجار والروزگار: الخدمة أو الحرفة، وفي القاموس: الراز رئيس البنائين ج الرازة، وحرفته الرِّيازَة، أفادنيه الأخ الأستاذ بسام الجابي حفظه الله.

(٣) الفتيت: الخبز اليابس المبلل بالماء.

(٤) عثمان بن عيسى أبو عمرو الباقلاوي والباقلاني، (نسبة إلى الباقلاء، وهو الفول في عرف البغداديين)، أحد الزهاد العباد، توفي سنة (٤٠٢هـ).

١٦٤٤ ـ وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ يُضَيَّعَ مِنْهُ لَحْظَةٌ: فَإِنَّ فِي «الصَّحِيْحِ». عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»(١) فكم يُضَيِّعُ الآدميُّ من ساعاتٍ يفوتُه فيها الثوابُ الجزيل!

وَهٰذِهِ الأَيَّامُ مِثْلُ المَزْرَعَةِ؛ فَكَأَنَّهُ قِيْلَ للإِنْسَانِ: كُلَّما بَذَرْتَ حَبَّةً؛ أَخْرَجْنَا لَكَ أَلْفَ كُرٍّ(٢)؛ فَهَلْ يَجُوْزُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِي البَذْرِ وَيَتَوَانَىٰ؟!

١٦٤٥ ـ وَالَّذِي يُعِيْنُ عَلَىٰ اغْتِنَامِ الزَّمَانِ: الانْفِرَادُ وَالعُزْلَةُ مَهْمَا أَمْكَنَ، والاخْتِصَارُ عَلَىٰ السَّلامِ أَوْ حَاجَةٍ مُهِمَّةٍ لِمَنْ يَلْقى، وَقِلَّةُ الأَكْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَتَهُ سَبَبُ النَّوْمِ الطَّوِيْلِ وَضَيَاعِ اللَّيْلِ. ومَن نَظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، وَآمَنَ بِالجَزَاءِ؛ بَانَ لَهُ مَا ذَكَرْتُهُ.

٣٦٩ - فصل: في معاشرة النساء

١٦٤٦ ـ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَخَيَّرَ امْرَأَةً صَالِحَةً، مِنْ بَيْتٍ صَالِحٍ، يَغْلِبُ عَلَيْهِ الفَقْرُ؛ لِتَرىٰ مَا يَأْتِيْهَا بِهِ كَثِيْرًا!

١٦٤٧ ـ وَلْيَتَزَوَّجْ مَنْ يُقَارِبُهُ فِي السِّنِّ؛ فَأَمَّا الشَّيْخُ؛ فَإِنَّه إِذَا تَزَوَّج صَبِيَّةً؛ آذَاهَا، وَرُبَّمَا فَجَرَتْ، أَوْ قَتَلَتْهُ، أَوْ طَلَبَتِ الطَّلَاقَ، وَهُوَ يُحِبُّها، فَيَتَأَذَّىٰ، وَلْيُتَمِّمْ نَقْصَه بِحُسْنِ الأَخْلَاقِ، وَكَثْرَةِ النَّفَقَةِ.

١٦٤٨ ـ وَلا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَقْرَبَ مِنْ زَوْجِهَا كَثِيْرًا: فَتُمَلَّ، وَلا تَبْعُدَ عَنْهُ؛ فَيَنْسَاهَا، وَلْتَكُنْ وَقْتَ قُرْبِها إِلَيْهِ كَامِلَةَ النَّظَافَةِ مُتَحَسِّنَةً.

١٦٤٩ ـ وَلْتَحْذَرْ أَنْ يَرَىٰ فَرْجَهَا أَوْ جِسْمَها كُلَّهُ؛ فَإِنَّ جِسْمَ الإِنْسَانِ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ! وَكذٰلِكَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لا يُرِيَها جِسْمَهُ، وَإِنَّمَا الجِمَاعِ فِي الفِرَاشِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٦٤ و٣٤٦٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٢٧) وابن حبان (٨٢٦ و٨٢٧)، والحاكم (١/ ٥٠١) عن جابر رضي الله عنه، وله شاهد رواه ابن أبي شيبة (٢٩٤٢٩)، والبزار (٢٠٩٧) وآخر رواه أحمد (٣/ ٤٤٠).

(٢) الكر = ٢٩٢٥كغ.

١٦٥٠ ـ وَرَأَىٰ كِسْرَى يَوْمًا كَيْفَ يُسْلَخُ الحَيَوَانُ ويُطْبَخُ، فَتَقَلَّبَتْ نَفسُه، وَنَفَىٰ اللَّحْمَ[١]، فَذَكَرَ ذٰلِكَ لِوَزِيْرِهِ، فَقَالَ: أَيُّهَا المُلِكُ! الطَّبِيْخُ عَلىٰ المَائِدَةِ، وَالمَرْأَةُ فِي الفِرَاشِ. وَمَعْنَاهُ: **لا تُفَتِّشْ عَنْ ذٰلِكَ**.

١٦٥١ ـ قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «**مَا رَأَيْتُه مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَلَا رَآهُ مِنِّي**». «**قَامْ لَيْلَةً عُرْيانًا؛ فَمَا رَأَيْتُ جِسْمَه قَبْلَهَا**»[٢].

وهٰذا الحَزْمُ، وَبِذٰلِكَ لا يَعِيْبُ الرَّجُلُ المَرْأَةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ عُيُوْبَها.

وَلْيَكُنْ لِلْمَرْأَةِ فِرَاشٌ، وَلَهُ فِرَاشٌ؛ فَلَا يَجْتَمِعَانِ إلَّا فِي حَالِ الكَمَالِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَهِيْنُ بِهٰذِهِ الأَشْيَاءِ، فَيَرَىٰ المَرْأَةَ مُتَبَذِّلَةً؛ تَقُوْلُ: هٰذَا أَبُوْ أَوْلادِي! وَيَتَبَذَّلُ هُوَ! فَيَرَىٰ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الآخَرِ مَا لا يَشْتَهِي، فَيَنْفِرُ القَلْبُ، وَتَبْقَىٰ المُعَاشَرَةُ بِغَيْرِ مَحَبَّةٍ. وهٰذَا فَصْلٌ يَنْبَغِي تَأَمُّلُه، وَالعَمَلُ بِهِ، فَإِنَّه أَصْلٌ عَظِيْمٌ.

٣٧٠ - فصل: فضل القناعة

١٦٥٢ ـ لا عَيْشَ فِي الدُّنيا إلَّا لِلْقَنُوْعِ بِاليَسِيْرِ. فَإِنَّهُ كُلَّمَا زَادَ الحِرْصُ عَلىٰ فُضُوْلِ العَيْشِ؛ زَادَ الهَمُّ، وَتَشَتَّتَ القَلْبُ، وَاسْتُعْبِدَ العَبْدُ.

وَأَمَّا **القَنُوْعُ**؛ فلا يَحْتَاجُ إلىٰ مُخَالَطَةِ مَنْ فَوْقَهُ، وَلا يُبَالِي بِمَنْ هُوَ مِثْلُهُ؛ إِذْ عِنْدَهُ مَا عِنْدَهُ.

١٦٥٣ ـ وَإِنَّ أَقْوَامًا لَمْ يَقْنَعُوْا، وَطَلَبُوْا لَذِيْذَ العَيْشِ، فَأَزْرَوْا بِدِيْنِهِم، وَذَلُّوا لِغَيْرِهِم، وَخُصُوْصًا أَرْبَابَ العِلْمِ؛ فَإِنَّهُم تَرَدَّدُوْا إلىٰ الأُمَرَاءِ فَاسْتَعْبَدُوْهُم، وَرأَوُا المُنْكَرَاتِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلىٰ إِنْكَارِهَا، وَرُبَّمَا مَدَحُوا الظَّالِمَ اتِّقَاءً لِشَرِّهِ، فالَّذِي نَالَهُم مِنَ الذُّلِّ وَقِلَّةِ الدِّيْنِ أَضْعَافُ مَا نَالُوْا مِنَ الدُّنيا.

١٦٥٤ ـ وَمِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ حَالًا مَنْ تَعَرَّضَ **لِلْقَضَاءِ وَالشَّهَادَةِ**. وَلَقَدْ كَانَتَا

---

(١) أي: تجنبه.

(٢) رواه الترمذي (٢٧٣٢) وفي سنده: إبراهيم بن يحيى وأبوه يحيى بن محمد ضعيفان ومحمد بن إسحاق مدلس. (ضعيف).

مَرْتَبَتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ: وَكَانَ عَبْدُ الحَمِيدِ القَاضِي[1] لا يُحَابِي، فَبَعَثَ إلى المعتَضِدِ، وَقَالَ لَهُ: قَدِ اسْتَأجَرْتَ وُقُوفًا: فَأَدِّ أُجْرَتَهَا! فَفَعَلَ. وَقَالَ لَهُ المُعْتَضِدُ: قَدْ مَاتَ فُلَانٌ، وَلَنَا عَلَيْهِ مَالٌ. **فَقَالَ**: أَنْتَ تَذْكُرُ لَمَّا وَلَّيْتَنِي؛ **قُلْتَ لِي**: قَدْ أَخْرَجْتُ هٰذَا الأَمْرَ مِنْ عُنُقِي وَوَضَعْتُهُ فِي عُنُقِكَ. وَلَا أَقْبَلُ هٰذَا الَّذِي تَقُوْلُ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ.

١٦٥٥ ـ وَكذٰلِكَ كَانَ **الشُّهُوْدُ**: دَخَلَ جَمَاعَةٌ عَلىٰ بَعْضِ الخُلَفَاءِ، فَقَالَ الخَادِمُ: اشْهَدُوْا عَلى مَوْلانا بِكَذَا! فَشَهِدُوا، فَتَقَدَّمَ **المَجْذُوْمِيُّ** إِلىٰ السَّتْرِ، **فَقَالَ**: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ! أَشْهَدُ عَلَيْكَ بِمَا فِي هٰذَا الكِتَابِ؟ فَقَالَ: اشْهَدْ! قَالَ: إِنّه لا يَكْفِي فِي ذٰلِكَ، لا أَشْهَدُ حَتَّىٰ تَقُوْلَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ.

١٦٥٦ ـ فَأَمَا فِي زَمَانِنَا؛ فَتَغَيَّرَتْ تِلْكَ القَوَاعِدُ مِنَ الكُلِّ، خُصُوْصًا مَنْ يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالمَالِ لِيُسْتَشْهَدَ، فَتَرَاهُ يُسْحَبُ لِيَشْهَدَ عَلىٰ مَا لا يَرَىٰ! قَالَ لِي **أَبُوْ المَعَالِي بْنُ شَافِعٍ**[2]: كُنْتُ أُحْمَلُ إِلىٰ بَعْضِ أَهْلِ السَّوَادِ وَهُوَ مَحْبُوْسٌ، وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ مُكْرَهٌ؛ لَجَاءَ إِلَيَّ بِقَدَمَيْهِ، وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذٰلِكَ.

١٦٥٧ ـ وَلَيْسَ لِلشُّهُودِ جِرَايَةٌ[3] فَيَحْمِلُوْنَ ذٰلِكَ لِأَجْلِها، وَإِنَّمَا الَّذِي يَحْصُلُ جَرُّ الطَّيْلَسَانِ، وَطَرْقُ البَابِ، وَقَوْلُ المُعَرِّفِ: حَرَسَ اللهُ نِعْمَتَك، شَهَادَةً!

١٦٥٨ ـ وَلَمّا قِيْلَ **لِإِبْرَاهِيْمَ النَّخَعِي**: تَكُوْنُ قَاضِيًا! لَبِسَ قَمِيْصًا أَحْمَرَ، وَجَلَسَ فِي السُّوْقِ، فَقَالُوْا: هٰذَا لا يَصْلُحُ!

١٦٥٩ ـ وَدَخَلَ بَعْضُ الكِبَارِ عَلىٰ الرَّشِيْدِ، وَقَدْ أَحْضَرَه لِيُوَلِّيَهِ القَضَاءَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ، وَكَيْفَ الصِّبْيَانُ؟ فَقِيْلَ: هٰذا مَجْنُوْنٌ! فَيالله! جُنُوْنٌ هُوَ العَقْلُ. وَمَا أَظُنُّ الإِيْمَانَ بِالآخِرَةِ إِلَّا مُتَزَلْزِلًا فِي أَكْثَرِ القُلُوْبِ. نَسْأَلُ الله سُبْحَانَه سَلامةً لِلدِّينِ؛ فَإِنَّه قَادِرٌ.

---

(١) أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز البغدادي المعدل، عالم ورع توفي سنة (٢٩٢هـ).

(٢) أحمد بن صالح بن شافع الجيلي (٥٢٠ ـ ٥٦٥هـ) الإمام محدث بغداد.

(٣) **الجراية**: مال أو طعام يعطى لمستحقه يوميًا أو شهريًا.

٣٧١ - فصل: التسليم للحكيم

قَدْ تَكَرَّرَ مَعْنَاهُ فِي هٰذَا الكِتَابِ؛ إِلَّا أَنَّ إِعَادَتَهُ عَلَىٰ النُّفُوْسِ مُهِمَّةٌ؛ لِئَلا يُغْفَلَ عَنْ مِثْلِهِ.

١٦٦٠ - يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَالِكٌ حَكِيْمٌ لا يَعْبَثُ، وَهٰذَا العِلْمُ يُوْجِبُ نَفْيَ الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ القَدَرِ.

١٦٦١ - وَقَد لَهَجَ خَلْقٌ بِالاعْتِرَاضِ قَدْحًا فِي الحِكْمَةِ، وَذٰلِكَ كُفْرٌ. وَأَوَّلُهُم إِبْلِيْسُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وَمَعْنَى قَوْلِهِ: إِنَّ تَفْضِيْلَكَ الطِّيْنَ عَلَىٰ النَّارِ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ!!

وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كَانَ فَقِيْهًا دَأَبُه الاعْتِرَاضُ! وهٰذَا لِأَنَّ المُعْتَرِضَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوْرَةِ الفِعْلِ، وَلَوْ أَنَّ صُوْرَةَ الفِعْلِ صَدَرَتْ مِنْ مُخْلُوْقٍ مِثْلِنا؛ حَسُنَ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ؛ فَأَمَّا مَنْ نَقَصَتِ الأَفْهَامُ عَنْ مُطَالَعَةِ حِكْمَتِهِ؛ فَاعْتِرَاضُ النَّاقِصِ الجَاهِلِ عَلَيْهِ جُنُوْنٌ.

١٦٦٢ - فَأَمَّا اعْتِرَاضُ الخُلَعَاءِ فَدَائِمٌ: لِأَنَّهُمْ يُرِيْدُوْنَ جَرَيَانَ الأُمُوْرِ عَلَىٰ أَغْرَاضِهِم؛ فَمَتَىٰ انْكَسَرَ لِأَحَدِهِم غَرَضٌ؛ اعْتَرَضَ.

١٦٦٣ - وَفِيْهِم مَنْ يَتَعَدَّىٰ إِلَىٰ ذِكْرِ المَوْتِ، فَيَقُوْلُ: بَنَىٰ ونَقَضَ!!

وَكَانَ لَنَا رَفِيْقٌ؛ قَرَأَ القُرْآنَ وَالقِرَاءَاتِ، وَسَمِعَ الحَدِيْثَ الكَثِيْرَ، ثُمَّ وَقَعَ فِي الذُّنُوْبِ، وَعَاشَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِيْنَ سَنَةً، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ المَوْتُ؛ ذُكِرَ لِي أَنَّهُ قَالَ: قَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ رُوْحِي!! وَمِنْ هٰذا الجِنْسِ سَمِعْتُ شَخْصًا يَقُوْلُ عِنْدَ المَوْتِ: رَبِّي يَظْلِمُنِي!! وَهٰذَا كَثِيْرٌ!

١٦٦٤ - وَيُكْرَهُ أَنْ يُحْكَىٰ كَلَامُ الخُلَعَاءِ فِي جُنُونِهِم وَاعْتِرَاضَاتِهِم البَارِدَةِ.

وَلَوْ فَهِمُوا أَنَّ الدُّنْيا مَيْدَانُ مُسَابَقَةٍ، وَمَارِسْتَانُ صَبْرٍ، لِيَبِيْنَ بِذٰلِكَ أَثَرُ الخَالِقِ؛ لَمَا اعْتَرَضُوْا، وَالَّذِي طَلَبُوْهُ مِنَ السَّلَامَةِ وَبُلُوْغِ الأَغْرَاضِ أَمَامَهُم[1] لَوْ فَهِمُوا؛ فَهُمْ كَالرُّوْزْجَارِي[2]؛ يَتَلَوَّثُ بِالطِّيْنِ؛ فَإِذَا فَرَغَ؛ لَبِسَ ثِيَابَ النَّظَافَةِ.

---

(١) في الآخرة.

(٢) الروزجاري: الذي يعمل بالفاعل في مهنة البناء.

وَلَمّا أُرِيْدَ نَقْضُ هٰذَا البَدَنِ الَّذِي لا يَصْلُحُ لِلْبقَاءِ؛ نُحِّيَتْ عَنْهُ النَّفْسُ الشَّرِيْفَةُ، وَبُنِيَ بِنَاءً يقبلُ الدوامَ[1].

١٦٦٥ ـ وَبَعْد هٰذَا؛ فَقُلْ لِلْمُعْتَرِضِ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

قُلْ لَهُ: إِنِ اعْتَرَضَ؛ لَمْ يَمْنَعْ ذٰلِكَ جَرَيَانَ القَدَرِ، وَإِنْ سَلَّمَ؛ جَرَىٰ القَدَرُ؛ **فَلَأَنْ يَجْرِيَ وَهُوَ مَأْجُوْرٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْرِيَ وَهُوَ مَأْزُوْرٌ.**

١٦٦٦ ـ وَمَا أَحْسَنَ سُكُوتَ وَضَّاحِ اليَمَنِ[2] لَمَّا اخْتَبَأَ فِي صُنْدُوْقٍ، **فَقَالَ السُّلْطَانُ**: أَيُّها الصُّنْدُوْقُ! إِنْ كَانَ فِيْكَ مَا نَظُنُّ؛ فَقَدْ مَحَوْنا أَثَرَكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ؛ لَيْسَ بِدَفْنِ خَشَبٍ مِنْ جُنَاحٍ. فَلَو أَنَّهُ صَاحَ؛ مَا انْتَفَعَ بِشَيْءٍ، وَلَرُبَّمَا أُخْرِجَ فَقُتِلَ أَقْبَحَ قِتْلَةٍ.

٣٧٢ - فصل: من تلمح أحوال الدنيا علم أن مراد الحق اجتنابها

١٦٦٧ ـ مَنْ تَلَمَّحَ أَحْوَالَ الدُّنْيا؛ عَلِمَ أَنَّ مُرَادَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ اجْتِنَابُها. فَمَن مَالَ إِلىٰ مُبَاحِهَا لِيَلْتَذَّ؛ وَجَدَ مَعَ كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةً[3]، وَإِلىٰ جَانِبِ كُلِّ رَاحَةٍ تَعَبًا، وَآخِرَ كُلِّ لَذَّةٍ نَغَصًا يَزِيْدُ عَلَيْهَا، وَمَا رُفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنيا؛ إِلَّا وَوُضِعَ.

أَحَبَّ الرَّسُوْلُ ﷺ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَجَاءَ حَدِيْثُ الإِفْكِ، وَمَالَ إِلىٰ زَيْنَبَ، فَجَاءَ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

١٦٦٨ ـ ثُمَّ يَكْفِي أَنَّه إِذَا حَصَّلَ مَحْبُوْبَه؛ فَعَيْنُ العَقْلِ تَرَىٰ فِرَاقَه، فَيَتَنَغَّصُ عَنْدَهُ وُجُوْدُهُ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَتَمُّ الحُزْنِ عِنْدِي فِي سُرُوْرٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا

١٦٦٩ ـ فَيَعْلَمُ العَاقِلُ أَنَّ مُرَادَ الحَقِّ بِهٰذَا التَّكْدِيْرِ التَّنْفِيرُ عَنِ الدُّنيا، فَيَبْقَىٰ أَخْذُ

---

(١) في الآخرة.

(٢) عبد الرحمٰن بن إسماعيل الخولاني، شاعر، رقيق الغزل، عجيب النسيب، جميل الطلعة. قدم مكة حاجًا في خلافة الوليد بن عبد الملك، فرأى أم البنين زوجة الوليد، فتغزل بها، فقتله الوليد قيل: كان قد اختبأ في صندوق فدفن الوليد الصندوق، وكان ذلك سنة (٩٠هـ).

(٣) **الترح**: الحزن.

البُلْغَةِ مِنْهَا ضَرُوْرَةً، وَتَرْكُ الشواغل، فَيَجْتَمِعُ الهَمُّ فِي خِدْمَةِ الحَقِّ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ؛ نَدِمَ عَلىٰ الفَوَاتِ.

٣٧٣ - فصل: العاقل يدبر بعقله عيشته في الدنيا

١٦٧٠ ـ العَاقِلُ يُدَبِّرُ بِعَقْلِهِ عِيْشَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنْ كَانَ **فَقِيْرًا**؛ اجْتَهَدَ فِي كَسْبٍ وَصِنَاعَةٍ تَكُفُّهُ عَنِ الذُّلِّ لِلْخَلقِ، وَقلَّلَ العَلَائِقَ، وَاسْتَعْمَلَ القَنَاعَةَ؛ فَعَاشَ سَلِيْمًا مِنْ مِنَنِ النَّاسِ عَزِيْزًا بَيْنَهُم.

وَإِنْ كَانَ **غَنِيًّا**؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُدَبِّرَ فِي نَفَقَتِهِ؛ خَوْفَ أَنْ يَفْتَقِرَ، فَيَحْتَاجَ إِلىٰ الذُّلِّ لِلْخَلْقِ، وَمِنَ البليةِ أَنْ يُبَذِّرَ فِي النَّفَقَةِ، وَيُبَاهِيَ بِهَا لِيُكْمِدَ الأَعْدَاءَ، كَأَنَّهُ يَتَعَرَّضُ بِذٰلِكَ ـ إِنْ أَكْثَرَ ـ لإِصَابَتِهِ بِالعَيْنِ!

١٦٧١ ـ وَيَنْبَغِي التَّوَسُّطُ فِي الأَحْوَالِ، وَكِتْمَانُ مَا يَصْلُحُ كِتْمَانُهُ. وَلَقَدْ وَجَدَ بَعْضُ الغَسَّالِيْنَ مَالًا، فَأَكْثَرَ فِي النَّفَقَةِ، فعُلِمَ بِهِ، فَأُخِذَ مِنْهُ المَالُ، وَعَادَ إِلىٰ الفَقْرِ. وَإِنَّمَا التَّدْبِيْرُ حِفْظُ المَالِ، وَالتَّوَسُّطُ فِي الإِنْفَاقِ، وَكِتْمَانُ مَا لَا يَصْلُحُ إِظْهَارُهُ.

١٦٧٢ ـ وَمِنَ الغَلَطِ إِطْلَاعُ الزَّوْجَةِ عَلىٰ قَدْرِ المَالِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ قَلِيْلًا؛ هَانَ عَنْدَهَا الزَّوْجُ، وَإِنْ كَانَ كَثِيْرًا؛ طَلَبَتْ زِيَادَةَ الكُسْوَةِ والحُلِيِّ! قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ**﴾ [النساء: ٥]. وَكذٰلِكَ الوَلَدُ.

١٦٧٣ ـ وَكذٰلِكَ الأَسْرَارُ؛ يَنْبَغِي أَنْ تُحْفَظَ، وَأَنْ يُحْذَرَ مِنْهَا وَمِنَ الصَّدِيْقِ؛ فَرُبَّمَا انْقَلَبَ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيْقَكَ أَلْفَ مَرَّه
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ ... ـقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالمَضَرَّه

١٦٧٤ ـ بِحَمدِ الله تَعَالىٰ قَدْ نَجَزَ مَا تَوَخَّاهُ الفِكْرُ الفَاتِرُ مِنْ تَقْيِيْدِ مَا جَمَعَهُ القَلَمُ، مِنْ (**صَيْدِ الخَاطِرِ**)، مُقْتَصِرًا فِيْهِ عَلىٰ مَا به (**التَّخلِّي مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، والتَّحلِّي بِالآدَابِ الشَّرْعيَّةِ، والأَخْلَاقِ المَرْضِيَّةِ**)، جعلَهُ اللهُ تَعَالىٰ خَيْرَ هَادٍ عَلىٰ مِنْبَرِ الوَعْظِ وَالإِرْشَادِ، وَأَنْفَعَ كِتَابٍ تَجَلَّىٰ فِي مَرَايا الظُّهُوْرِ لِهِدَايَةِ العِبَادِ. وَالحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَصَلَّى اللهُ عَلىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلىٰ آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّم.

لَفْتَةُ الكِبْدِ إلى نصيحَةِ الوِلْدِ

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

٣٧٤ - المقدمة

١٦٧٥ ـ الحَمْدُ للهِ الّذِي أَنْشَأَ الأَبَ الأَكْبَرَ[١] مِنْ تُرَابٍ، وَأَخْرَجَ ذُرّيّتَهِ مِنْ التَرَائِبِ[٢] والأَصْلَابِ، وَعَضَّدَ[٣] العَشَائِرَ بِالقَرَابَةِ وَالأَنْسَابِ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِالعِلْمِ وَعِرْفَانِ الصَّوَابِ، وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتِي فِي الصبا[٤]، وحَفِظَنِي فِي الشَّبَابِ، وَرَزَقَنِي ذُرّيَّةً أَرْجُوْ بِوُجُوْدِهِم[٥] وُفُورَ[٦] الثَّوَابِ، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

١٦٧٦ ـ **أمّا بَعْدُ**؛ فَإِنِّي لَمّا عَرَفْتُ شَرَفَ النِّكَاحِ، وَفَضْلَ[٧] الأَوْلَادِ، خَتَمْتُ ختمة، وَسَأَلْتُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنِي عَشْرَةَ أَوْلَادٍ، فَرَزَقَنِيهِم[٨]، فَكَانُوا: خَمْسَةَ ذُكُوْرٍ، وَخَمْسَ إِنَاثٍ، فَمَاتَ مِنَ الإِناثِ ٱثْنَتَانِ، وَمِنَ الذُّكُوْرَ أَرْبَعَةٌ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الذُّكُوْرِ سِوَىٰ وَلَدِي أَبي القَاسِمِ[٩]، فَسَأَلْتُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ فِيْهِ الخَلَفَ الصَّالِحَ، وَأَنْ يَبلُغَ بِهِ المُنَىٰ والمَنَاجِحَ.

---

(١) **الأب الأكبر**: آدم عليه السلام.
(٢) **الترائب**: عظام الصدر مما يلي الترقوتين.
(٣) قوّى.
(٤) في نسخة: الصغر.
(٥) في نسخة: بهم.
(٦) **وفور**: كثرة.
(٧) في م: طلب.
(٨) في نسخة: فرزقني إياهم.
(٩) واسمه علي، ولد سنة (٥٥١)هـ، وتوفي سنة (٦٣٠)هـ.

١٦٧٧ ـ ثُمَّ رَأَيْتَ مِنْهُ نَوْعَ تَوانٍ[١] عَنِ الجهدِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَكَتَبْتُ لَهُ[٢] هذِهِ الرِّسَالَةَ، أَحُثُّه بِهَا، وَأُحَرِّكُهُ عَلىٰ سُلُوْكِ طَرِيْقِي فِي كَسْبِ العِلْمِ، وَأَدُلُّهُ عَلىٰ الالْتِجَاءِ[٣] إِلَىٰ المُوَفِّقِ ﷻ، مَعَ عِلْمِي بِأَنَّهُ لا خَاذِلَ لِمَنْ وَفَّقَ، وَلا مُرْشِدَ لِمَنْ أَضَلّ، لٰكِنْ قَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٩]، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ.

١/ ٣٧٥ - فصل: تميز الآدمي بالعقل

١٦٧٨ ـ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ ـ وَفَّقَكَ اللهُ لِلصَّوَابِ ـ أَنَّهُ لَمْ يَتَمَيَّزِ الآدَمِيُّ بِالعَقْلِ إِلّا لِيَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ، فَاسْتَحْضِرْ عَقْلَكَ، وَأَعْمِلْ فِكْرَكَ، وَاخْلُ بِنَفْسِكَ.

١٦٧٩ ـ تَعْلَمُ بِالدَّلِيْلِ أَنَّكَ مَخْلُوْقٌ مُكَلَّفٌ، وَأَنّ عَلَيْكَ فَرَائِضَ أَنْتَ مُطَالَبٌ بِهَا، وَأَنّ المَلَكَيْنِ يُحْصِيَانِ أَلْفَاظَكَ وَنَظَراتِكَ، وَأَنَّ أَنْفَاسَ الحَيِّ خُطَاهُ إِلىٰ أَجَلِهِ[٤]، وَمِقْدَارَ اللُّبْثِ فِي الدُّنْيَا قَلِيْلٌ، وَالحَبْسَ فِي القُبُوْرِ طَوِيْلٌ، والعَذَابَ عَلىٰ مُوَافَقَةِ الهَوَىٰ وَبِيْلٌ[٥]. فَأَيْنَ لَذَّةُ أَمْسٍ؟ رَحَلَتْ وَأَبْقَتْ نَدَمًا!!. وَأَيْنَ شَهْوَةُ النَّفْسِ؟ كَمْ نَكَّسَتْ رَأْسًا، وَأَزَلَّتْ قَدَمًا، وَمَا سَعِدَ مَنْ سَعِدَ إِلّا بِخِلَافِ هَوَاهُ، وَلا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ إِلّا بِإِيْثَارِ دُنْيَاهُ.

فَاعْتَبِرْ بِمَنْ مَضَىٰ مِنَ المُلُوْكِ وَالزُّهَّادِ، أَيْنَ لَذَّةُ هٰؤُلَاءِ؟ وَأَيْنَ تَعَبُ أُولٰئِكَ؟ بَقِيَ الثَّوَابُ الجَزِيْلُ، وَالذِّكْرُ الجَمِيْلُ للصَّالِحِيْنَ[٦]، والقَالَةُ[٧] القَبِيْحَةُ وَالعِقَابُ الوَبِيْلُ لِلعَاصِيْنَ، وَكَأَنَّهُ مَا جَاعَ مَنْ جَاعَ، وَلا شَبِعَ مَنْ شَبِعَ.

١٦٨٠ ـ والكَسَلُ عَنِ الفَضَائِلِ بِئْسَ الرَّفِيقُ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ يُوْرِثُ مِنَ النَّدَمِ مَا يَرْبُو[٨] عَلىٰ كُلِّ لَذَّةٍ، فَانْتَبِه وَاتْعَبْ لِنَفْسِكَ.

---

(١) **توانٍ**: فتور وكسل.
(٢) في نسخة: إليه.
(٣) في نسخة: اللجأ.
(٤) في نسخة: فإن أنفاس خطواتك إلى أجلك.
(٥) شديد.
(٦) في نسخة: للطائعين.
(٧) في ت: المقالة
(٨) يزيد.

١٦٨١ ـ وَٱعْلَمْ أَنّ أَدَاءَ الفَرَائِضِ وَٱجْتِنَابَ المَحَارِمِ لازِمٌ، فمتىٰ تَعَدَّ الإنسانُ فالنارَ النارَ!!.

١٦٨٢ ـ ثُمّ ٱعْلَمْ أَنّ طَلَبَ الفَضَائِلِ نِهَايَةُ مُرَادِ المُجْتَهِدِيْنَ.

١٦٨٣ ـ ثُمَّ الفَضَائِلُ تَتَفَاوَتُ، فَمِنَ الناسِ مَنْ يَرَىٰ الفَضَائِلَ: **الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا**، وَمِنْهُم مَنْ يَرَاهَا **التَّشَاغُلَ بِالتَّعَبُّدِ**.

١٦٨٤ ـ وَعَلىٰ الحَقِيْقَةِ، **فَلَيْسَتِ الفَضَائِلُ الكَامِلَةُ إِلّا الجَمْعَ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ**، فَإِذَا حَصَلا رَفَعا صَاحِبَهُمَا إِلىٰ تَحْقِيْقِ مَعْرِفَةِ الخَالِقِ ﷻ، وَحَرَّكَاهُ إِلىٰ مَحَبَّتِهِ وَخَشْيَتِهِ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ.

فَتِلْكَ الغَايَةُ المَقْصُوْدَةُ، وَ«**عَلىٰ قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ**»[1]، وَلَيْسَ كُلُّ مرِيْدٍ[2] مُرَادًا[3]، وَلَا كُلُّ طَالِبٍ وَاجِدًا، وَلَكِنْ عَلىٰ العَبْدِ الاجْتِهَادُ، وَ«**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[4] وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

٢/٣٧٦ - فصل: معرفة الله بالدليل أول ما ينبغي النظر فيه

١٦٨٥ ـ وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي النَّظَرُ فِيْهِ: مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالدَّلِيْلِ، وَمَعْلُوْمٌ أَنّ مَنْ رَأَىٰ السَّمَاءَ مَرْفُوْعَةً، وَالأَرْضَ مَوْضُوْعَةً، وَشَاهَدَ الأَبْنِيَةَ المُحْكَمَةَ خُصُوْصًا فِي جَسَدِ نَفْسِه، عَلِمَ أَنَّهُ لا بُدّ لِلصَّنْعَةِ مِنْ صَانِعٍ، وَلِلْمَبْنِيِّ مِنْ بَانٍ.

١٦٨٦ ـ ثُمَّ يَتَأَمَّلُ صِدْقَ الرَّسُوْلِ ﷺ إِلَيْهِ، وَأَكْبَرُ الدَّلَائِلِ **القُرْآنُ** الّذِي أَعْجَزَ الخَلْقَ أَنْ يَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

١٦٨٧ ـ فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدَهُ وُجُوْدُ الخَالِقِ ـ جلَّ وَعَلَا ـ وَصِدْقُ الرَّسُوْلِ ﷺ، وَجَبَ تَسْلِيْمُ عِنَانِه[5] إِلَىٰ الشَّرْعِ، فَمَتَىٰ لَمْ يَفْعَلْ، دَلَّ عَلىٰ خَلَلٍ في اعْتِقَادِهِ.

---

(١) صدر بيت للمتنبي وعجزه: «وتأتي على قدر الكرام المكارمُ». ديوانه ص(٣٧٤).
(٢) في نسخة: مراد.
(٣) أي: ليس كل ما يريده الإنسان يريده الله تعالى.
(٤) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) عن علي رضي الله عنه.
(٥) زمام أمره.

١٦٨٨ ـ يَجِبُ عَلَيْهِ[١] أَنْ يَعْرِفَ ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الوُضُوْءِ والصَّلاةِ والزَّكَاةِ ـ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ ـ والحجِّ، وَغَيْرِ ذٰلكَ مِنَ الوَاجِبَاتِ، فَإِذَا عَرَفَ قَدْرَ الوَاجِبِ قَامَ بِهِ.

١٦٨٩ ـ فَيَنْبَغِي لِذِي الهِمَّة أَنْ يَتَرَقّىٰ إِلىٰ الفَضَائِلِ فَيَتَشَاغَلَ بِحِفْظِ القُرْآنِ وَتَفْسِيْرِهِ، وَبِحَدِيْثِ الرَّسُوْلِ ﷺ، وَبِمَعْرِفَةِ سِيْرَتِهِ وَسِيَرِ أَصْحَابِهِ وَالعُلَمَاءِ بَعْدَهُم، لِيَتَخَيَّرَ مَرْتَبَةَ الأَعْلَىٰ فَالأَعْلَىٰ، وَلا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يُقِيْمُ بِهِ لِسَانَهُ مِنَ **النَّحْوِ**، وَمَعْرِفَةِ طَرَفٍ مُسْتَعْمَلٍ مِنَ **اللُّغَةِ**.

١٦٩٠ ـ وَالفِقْهُ أَصْلُ[٢] العُلُوْمِ، وَالتَّذْكِيْرُ[٣] حَلْوَاؤُهَا، وَأَعَمُّهَا نَفْعًا، وَقَدْ رَتَّبْتُ فِي هٰذِهِ المَذْكُوْرَاتِ مِنَ التَّصَانِيْفِ مَا يُغْنِي عَنْ كُلِّ مَا سَبَقَ مِنْ تَصَانِيْفِ القُدَمَاءِ وَغَيْرِهَا بِحَمْدِ اللهِ وَمَنِّهِ، فَأَغْنَيْتُكَ عَنْ تَطلُّبِ الكُتُبِ، وَجَمْعِ الهِمَمِ لِلتَّصْنِيْفِ، وَمَا تَقِفُ هِمَّةٌ إِلَّا لِخَسَاسَتِهَا، وَإِلّا فَمَتَىٰ عَلَتِ الهِمَّةُ فَلَا تَقْنَع بِالدُّوْنِ.

١٦٩١ ـ وَقَدْ عَرَفْتُ بِالدَّلِيْلِ أَنَّ الهِمَّةَ مَوْلُوْدَةٌ مَعَ الآدَمِيِّ، وَإِنَّمَا تَقْصُرُ بَعْضُ الهِمَمِ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَإِذَا حُثَّتْ سَارَتْ. وَمَتَىٰ رَأَيتَ فِي نَفْسِكَ عَجْزًا فَسَلِ المُنْعِمَ، أَوْ كَسَلًا فَالْجَأْ إِلَىٰ المُوَفِّقِ، فَلَنْ تَنَالَ خَيْرًا إِلّا بِطَاعَتِهِ، وَلا يَفُوْتُكَ خَيْرٌ إِلّا بِمَعْصِيَتِهِ، فَمَنِ الّذِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرِدْ[٤] كُلَّ مُرَادٍ؟ وَمَنِ الّذي أَعْرَضَ عَنْهُ فَمَضَىٰ بِفَائِدَةٍ، أَوْ حَظِيَ بِغَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ؟!. أَوَ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ[٥]:

وَاللهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِرًا ... إِلّا وَجَدْتُ الأَرْضَ تُطْوَىٰ لِيْ

وَلَا ثَنَيْتُ العَزْمَ عَنْ بَابِكُمْ ... إِلّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

٣/ ٣٧٧ - فصل: تدبير اللطيف عبده الضعيف

١٦٩٢ ـ وَانْظُر ـ يَا بُنَيَّ ـ إِلىٰ نَفْسِكَ عِنْدَ الحُدُوْدِ[٦]، فَتَلَمَّحْ: كَيْفَ حِفْظُكَ

---

(١) في نسخة: ينبغي له.
(٢) في نسخة: أم.
(٣) في نسخة: والوعظ.
(٤) يرد من الورود، وفي نسخة: ير.
(٥) نسبه المؤلف للشريف الرضي ولم أجدها في ديوانه.
(٦) **الحدود**: الحلال والحرام.

لَهَا؟ فَإِنَّهُ مَنْ رَاعَىٰ رُوْعِي[1]، وَمَنْ أَهْمَلَ تُرِكَ.

١٦٩٣ ـ وَإِنِّي لأَذْكُرُ لَكَ بَعْضَ أَحْوَالِي، لَعَلَّكَ تَنْظُرُ إِلَىٰ اجْتِهَادِي، وَتَسْأَلُ المُوَفِّقَ لِيَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الإِنْعَامِ عَلَيَّ لَمْ يَكُنْ بِكَسْبِي، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّطِيْفِ بي، فَإِنِّي أَذْكُرُ نَفْسِي وَلِي هِمَّةٌ عَالِيَةٌ، وَأَنَا فِي المَكْتَبِ ابْنُ ستِّ سِنِيْنَ، وَأَنَا قَرِيْنُ الصِّبْيَانِ الكِبَارِ، قَدْ رُزِقْتُ عَقْلًا وَافِرًا فِي الصِّغَرِ، يَزِيْدُ عَلَىٰ عَقْلِ الشُّيُوْخِ، فَمَا أَذْكُرُ أَنِّي لَعِبْتُ فِي طَرِيْقٍ مَعَ الصِّبْيَانِ قَطُّ، وَلا ضَحِكْتُ ضَحِكًا خَارِجًا[2]. حَتَّىٰ إِنِّي كُنْتُ، وَلِي سَبْعُ سِنِيْنَ أَوْ نَحْوُهَا أَحْضُرُ رَحَبَةَ الجَامِعِ، فَلَا أَتَخَيَّرُ حَلَقَةَ مَشْعَبِذٍ[3]، بَلْ أَطْلُبُ المُحَدِّثَ فَيَتَحَدَّثُ بِالسِّيَرِ[4] الطَّوِيْلِ، فَأَحْفَظُ جَمِيْعَ مَا أَسْمَعُهُ، وَأَذْهَبُ إِلَىٰ البَيْتِ فَأَكْتُبُهُ.

١٦٩٤ ـ وَلَقَدْ وُفِّقَ لِي شَيْخُنَا أَبُوْ الفَضْلِ ابْنُ نَاصِرٍ رَحِمَهُ اللهُ وَكَانَ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ الشُّيُوْخِ، فَأَسْمَعَنِي (المُسْنَدَ)[5] وَغَيْرَهُ مِنَ الكُتُبِ الكِبَارِ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ مَا يُرَادُ مِنِّي، وضَبَطَ لِي مَسْمُوْعَاتِي إِلَىٰ أَنْ بَلَغْتُ، فَنَاوَلَنِي ثَبَتَهَا[6]، وَلازَمْتُهُ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ فَنِلْتُ[7] بِهِ مَعْرِفَةَ الحَدِيْثِ وَالنَّقْلِ.

١٦٩٥ ـ وَلَقَدْ كَانَ الصِّبْيَانُ يَنْزِلُوْنَ إِلَىٰ دِجْلَةَ، وَيَتَفَرَّجُوْنَ عَلَىٰ الجِسْرِ، وَأَنَا فِي زَمَنِ الصِّغَرِ، آخُذُ جزءًا، وأَقْعُدُ حُجْزَةً[8] مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ جَانِبِ الرَّقَّةِ[9]، فَأَتَشَاغَلُ بِالعِلْمِ.

١٦٩٦ ـ ثُمَّ أُلْهِمْتُ الزُّهْدَ، فَسَرَدْتُ الصَّوْمَ، وَتَشَاغَلْتُ بِالتَّقَلُّلِ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي الصَّبْرَ، فَاسْتَمَرَّتْ، وَشَمَّرْتُ، وَلَازَمْتُ وَعَالَجْتُ[10] السَّهَرَ، وَلَمْ أَقنَعْ بِفَنٍّ مِنَ العُلُوْمِ، بَلْ كُنْتُ أَسْمَعُ الفِقْهَ والوَعْظَ وَالحَدِيْثَ، وَأَتَّبِعُ الزُّهَّادَ.

---

(١) أي: من حفظ حدود الله حفظه الله مصداق حديث ابن عباس الآتي ذكره في الفصل (٣٨٣).
(٢) أي: خارجًا عن حدود الأدب.
(٣) في ت: مشعبة.
(٤) في نسخة: بالسرد الطويل.
(٥) مسند الإمام أحمد.
(٦) مجموع فيه مسموعاته ويسمّى المعجم، وعند المغاربة: الفهرس، وعند الأندلسيين: البرنامج.
(٧) في نسخة: فأدركت.
(٨) بعيدًا عن الناس.
(٩) الرقة: منطقة في الجانب الغربي من بغداد مقابل دار الخلافة، سميت الرقة، لأنها كانت تشكل لسانًا يمتد إلى النهر، محلها الآن باب السيف، والزركجي القسم المطل على النهر.
(١٠) زاولت.

١٦٩٧ ـ ثُمَّ قَرَأْتُ اللُّغَةَ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَحَدًا مِمَّنْ يَرْوِي وَيَعِظُ، وَلا غَرِيْبًا يَقْدِمُ إِلّا وَأَحْضُرُهُ، وَأَتَخَيَّرُ الفَضَائِلَ.

١٦٩٨ ـ وَكُنْتُ إِذَا عَرَضَ لِي أَمْرَانِ أُقْدِمُ فِي أَغْلَبِ الأَحْوَالِ حَقَّ الحَقِّ، فَأَحْسَنَ اللهُ تَدْبِيْرِي وَتَرْبِيَتِي، وَأَجْرَانِي عَلىٰ مَا هُوَ الأَصْلَحُ لِي، وَدَفَعَ عَنِّي الأَعْدَاءَ وَالحُسَّادَ وَمَنْ يَكِيْدُنِي، وَهَيَّأَ لِي أَسْبَابَ العِلْمِ، وَبَعَثَ إِلَيَّ الكُتُبَ مِنْ حَيْثُ لا أَحْتَسِبُ، وَرَزَقَنِي الفَهْمَ، وَسُرْعَةَ الحِفْظِ، وَالحَظَّ وَجَوْدَةَ التَّصْنِيْفِ، وَلَمْ يُعْوِزْنِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيا، بَلْ سَاقَ إِلَيَّ مِنَ الرِّزْقِ مقْدَارَ الكِفَايَةَ وَأَزْيَدَ.

١٦٩٩ ـ وَوَضَعَ لِي مِنَ القَبُوْلِ فِي قُلُوْبِ الخَلْقِ فَوْقَ الحَدِّ، وَأَوْقَعَ كَلامِي فِي نُفُوْسِهِم فَلا يَرْتَابُوْنَ بِصِحَّتِهِ. وَقَدْ أَسْلَمَ عَلىٰ يَدَي نَحْوٌ مِنْ[1] مِئَتَينِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَلَقَدْ تَابَ فِي مَجَالِسِي أَكْثَرُ مِنْ مِئَةِ أَلْفٍ، وَقَدْ قَطَعْتُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِيْنَ أَلْفَ سَالِفٍ مَمّا يَتَعَانَاهُ الجُهَّال.

١٧٠٠ ـ وَلَقَدْ كُنْتُ أَدُوْرُ عَلىٰ المَشَايِخِ لِسَمَاعِ الحَدِيْثِ، فَيَنْقَطِعُ نَفَسِي مِنَ العَدْوِ لِئلّا أُسْبَقَ، وَكُنْتُ أُصْبِحُ، وَلَيْسَ لِي مَأْكَلٌ، وَأُمْسِي وَلَيْسَ لِي مَأْكَلٌ، مَا أَذَلَّنِي اللهُ لِمَخْلُوْقٍ قَطُّ، وَلكنَّهُ سَاقَ رِزْقِي لِصِيَانَةِ عِرْضِي، وَلَوْ شَرَحْتُ أَحْوَالِي لَطَالَ الشَّرْحُ.

وَهَا أَنَا قَدْ تَرَىٰ مَا آلَتْ حَالِي إِلَيْهِ، وَأَنَا أَجْمَعُهُ لَكَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٤/٣٧٨ - فصل: اجتهد ما دام في الوقت سعة

١٧٠١ ـ فَانْتَبِهْ يَا بُنَيَّ لِنَفْسِكَ، وَانْدَمْ عَلىٰ مَا مَضَىٰ مِنْ تَفْرِيْطِكَ، وَاجْتَهِدْ فِي لَحَاقِ الكَامِلِيْنَ، مَا دَامَ فِي الوَقْتِ سَعَةٌ، وَاسْقِ غُصْنَكَ مَا دَامَتْ فِيْهِ رُطُوْبَةٌ، وَاذْكُرْ سَاعَتَكَ الّتي ضَاعَتْ فَكَفَىٰ بِهَا عِظَةً، ذَهَبَتْ لَذَّةُ الكَسَلِ فِيْهَا، وَفَاتَتْ مَرَاتِبُ الفَضَائِلِ.

---

(١) ساقطة من (ت).

١٧٠٢ ـ وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ يُحِبُّوْنَ جَمْعَ كُلِّ فَضِيْلَةٍ، وَيَبْكُوْنَ عَلَىٰ فَوَاتِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا. قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ: دَخَلْنَا عَلَىٰ عَابِدٍ مَرِيْضٍ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ رِجْلَيْهِ وَيَبْكِي، **فَقُلْنَا**: مَا لَكَ تَبْكِي؟ **فَقَالَ**: مَا اغْبَرَّتَا فِي سَبِيْلِ اللهِ. وَبَكَىٰ آخَرُ **فَقَالُوْا**: مَا يُبْكِيْكَ؟ **فَقَالَ**: عَلَيَّ يَوْمٌ مَضَىٰ مَا صُمْتُهُ، وَعَلَيَّ لَيْلَةٌ ذَهَبَتْ مَا قُمْتُهَا.

١٧٠٣ ـ وَاعْلَمْ ـ يا بني ـ أَنَّ الأَيَّامَ تُبْسَطُ سَاعَاتٍ، والسَّاعَاتِ تُبْسَطُ أَنْفَاسًا، وَكُلُّ نَفَسٍ خِزَانَةٌ، فَاحْذَرْ أَنْ يَذْهَبَ نَفَسٌ بِغَيْرِ شَيْءٍ، فَتَرَىٰ فِي القِيَامَةِ خِزَانَةً فَارِغَةً فَتَنْدَمَ.

١٧٠٤ ـ وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: قِفْ أُكَلِّمْكَ، فَقَالَ: أَمْسِكِ الشَّمْسَ.

١٧٠٥ ـ وَقَعَدَ قَوْمٌ عِنْدَ مَعْرُوْفٍ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: أَمَا تُرِيْدُوْنَ أَنْ تَقُوْمُوْا؛ فَإِنَّ مَلَكَ الشَّمْسِ يَجُرُّهَا لا يَفْتُرُ!.

١٧٠٦ ـ وَفِي الحَدِيْثِ: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»، فَانْظُرْ إِلَىٰ مُضَيِّعِ السَّاعَاتِ كَمْ يَفُوْتُهُ مِنَ النَّخِيْلِ!.

١٧٠٧ ـ وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَغْتَنِمُوْنَ اللَّحَظَاتِ، فَكَانَ **كَهْمَسُ**[1] رَحِمَهُ اللهُ يَخْتِمُ القُرْآنَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَكَانَ أَرْبَعُوْنَ رَجُلًا مِنَ السَّلَفِ يُصَلُّوْنَ الصُّبْحَ بِوُضُوْءِ العِشَاءِ، وَكَانَتْ رَابِعَةُ العَدَوِيَّةُ تُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا طَلَعَ الفَجْرُ هَجَعَتْ هَجْعَةً خَفِيْفَةً، ثُمَّ قَامَتْ فَزِعَةً، وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: **النَّوْمُ فِي القُبُوْرِ طَوِيْلٌ**.

٣٧٩/٥ - فصل: النظر في حقيقة الدنيا

١٧٠٨ ـ **وَمَنْ تَفَكَّرَ** فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُوْجَدَ رَأَىٰ مُدَّةً طَوِيْلَةً، **فَإِذَا تَفَكَّرَ** فِيْهَا بَعْدَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا رَأَىٰ مُدَّةً طَوِيْلَةً، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّبْثَ فِي القُبُوْرِ طَوِيْلٌ، **فَإِذَا تَفَكَّرَ** فِي يَوْمِ القِيَامَةِ عَلِمَ أَنَّهُ خَمْسُوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ، **فَإِذَا تَفَكَّرَ** فِي اللَّبْثِ فِي الجَنَّةِ أَوْ النَّارِ عَلِمَ أَنَّهُ لا

(١) كهمس بن الحسين التميمي البصري، أبو الحسن، عابد، توفي سنة (١٤٩هـ).

نِهَايَةَ لَهُ. **فَإِذَا عَادَ** إِلَىٰ النَّظَرِ فِيْ مِقْدَارِ بَقَائِهِ فِي الدُّنْيَا فَرَضْنَا سِتِّيْنَ سَنَةً مَثَلًا، فَإِنَّهُ يُمْضِي **ثَلَاثِيْنَ سَنَةً** فِي النَّوْمِ، وَنَحْوًا مِنْ **خَمْسَ عَشْرَةَ** فِي الصِّبَا، فَإِذَا حَسِبَ البَاقِي كَانَ أَكْثَرُهُ، فِي الشَّهَوَاتِ والمَطَاعِمِ والمَكَاسِبِ، فَإِذَا خَلَّصَ مَا لِلآخِرَةِ وَجَدَ فِيْهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالغَفْلَةِ كَثِيْرًا، فَبِمَاذَا تَشْتَرِي الحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ، وَإِنَّمَا الثَّمَنُ هذِهِ السَّاعَاتِ؟.

٦/ ٣٨٠ - فصل: لا تيأس من الخير

١٧٠٩ - وَلَا يُؤْيِسُكَ - يَا بُنَيَّ - مِنَ الخَيْرِ مَا مَضَىٰ مِنَ التَّفْرِيْطِ، فَإِنَّهُ قَدِ انْتَبَهَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ بَعْدَ الرُّقَادِ الطَّوِيْلِ.

١٧١٠ - فَقَدْ حَدَّثَنِي الشَّيْخُ أَبو حَكِيْم عَنْ قَاضِي القُضَاةِ الشَّيْخِ أبي الحَسَنِ الدَّامَغَانِي[١] رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كُنْتُ في صِبْوَتِي مُتَشَاغِلًا بِالبَطَالَةِ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَىٰ العِلْمِ، فَأَحْضَرَنِي أَبي، أبو عبد الله[٢] رَحِمَهُ اللهُ **وَقَالَ لِي**: يا بُنَيَّ! لَسْتُ أَبْقَىٰ لكَ أبدًا، فَخُذْ عِشْرِيْنَ دِيْنَارًا، وَافْتَحْ لَكَ دُكَّانَ خَبَّازٍ وَتَكَسَّبْ، **فَقُلْتُ لَهُ**: مَا هٰذَا الكَلام؟! قَالَ: فَافْتَحْ دُكَّانَ بزَّازٍ[٣]، **فَقُلْتُ**: كَيْفَ تَقُوْلُ لِيْ هٰذَا، وأَنَا ابْنُ قَاضِي القُضَاةِ **أَبي عَبْدِ الله الدَّامَغَاني؟! قَالَ**: فَمَا أَرَاكَ تَطْلُبُ العِلْمَ! **فَقُلْتُ**: اذْكُرْ لِي الدَّرْسَ سَاعَةً، فَذَكَرَ لِي، فَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ التَّشَاغُلِ[٤] بِالعِلْمِ، وَاجْتَهَدْتُ، فَفَتَحَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيَّ.

١٧١١ - وَحَكَىٰ لِي بَعْضُ أَصْحَابِ أبي مُحَمَّدٍ الحَلْوَانِي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: مَاتَ أَبي وأَنَا ابْنُ إِحْدَىٰ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، وَكُنْتُ مَوْصُوْفًا بِالبَطَالَةِ، فَأَتَيْتُ أَتَقَاضَىٰ بَعْضَ سُكَّانِ دَارٍ قَدْ وَرِثْتُهَا، فَسَمِعْتُهُم يَقُوْلُوْنَ: جَاءَ المُدَبِّر، أَي الرَّبِيْط[٥]، **فَقُلْتُ لِنَفْسِي**: يُقَالُ عَنِّي هٰذَا!! فَجِئْتُ إِلَىٰ وَالِدَتِي **فَقُلْتُ**: إِذَا أَرَدْتِ طَلَبِي فَاطْلُبِيْنِي مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ أبي الخَطَّاب[٦]، وَلَازَمْتُهُ، فَمَا خَرَجْتُ إِلَّا إِلَىٰ القَضَاءِ، فَصِرْتُ قَاضِيًا مُدَّةً.

---

(١) أبو الحسن بن محمد بن علي بن محمد الدامغاني البغدادي، كان هو وأبوه قاضيًا للقضاة.

(٢) العلامة البارع مفتي العراق وقاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الدامغاني الحنفي (٣٩٨ - ٤٧٨هـ).

(٣) بزاز: بائع ثياب.

(٤) في ت: الاشتغال.

(٥) الربيط: الذي يعيش بمال غيره.

(٦) محفوظ بن أحمد الكلواذاني، تلميذ أبي يعلى الفرّاء (٤٣٢ - ٥١٠)هـ، شيخ الحنابلة حتى صار =

قُلْتُ: وَرَأَيْتُهُ أنَا، وَهُوَ يُفْتِي ويُنَاظِرُ.

١٧١٢ ـ فَأَلْزِمْ نَفْسَكَ ـ يَا بُنَيَّ ـ الانْتِبَاهَ عِنْدَ طُلُوْعِ الفَجْرِ، وَلا تَتَحَدَّثْ بِحَدِيْثِ الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ لا يَتَكَلَّمُوْنَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُوْرِ الدُّنْيَا، وَقُلْ عِنْدَ انْتِبَاهِكَ مِنَ النَّوْمِ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانِي بَعْدَمَا أَمَاتَنِي وَإِلَيْهِ النُّشُوْرُ**»[(١)]، **الحَمْدُ للهِ الَّذِي** ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

١٧١٣ ـ ثُمَّ قُمْ إِلىٰ الطَّهَارَةِ، وَٱرْكَعْ سُنَّةَ الفَجْرِ، وَٱخْرُجْ إِلىٰ المَسْجِدِ خَاشِعًا، وَقُلْ فِي طَرِيْقِكَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِيْنَ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ هٰذَا، إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلَا بَطَرًا، وَلا رِيَاءً وَلا سُمْعَةً، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيْرَنِي مِنَ النَّارِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوْبِي، إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٢)].

وَاقْصُدِ الصَّلَاةَ إِلىٰ يَمِيْنِ الإِمَامِ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ فَقُلْ: «**لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيْتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ**» ـ عشر مرات[(٣)] ـ ثُمَّ **سَبِّحْ عَشْرًا، وَاحْمَدْ عَشْرًا، وَكَبِّرْ عَشْرًا**[(٤)]، **وَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ**[(٥)]، وَاسْأَلِ اللهَ سُبْحَانَهُ قَبُوْلَ الصَّلَاةِ.

١٧١٤ ـ فَإِنْ صَحَّ لَكَ، فَاجْلِسْ ذَاكِرًا اللهَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَتَرْتَفِعَ، ثُمَّ صَلِّ وَٱرْكَعْ مَا كُتِبَ لَكَ، وَإِنْ كَانَ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، فَهُوَ حَسَنٌ.

= إمام وقته، قال الذهبي: كان أبو الخطاب من محاسن العلماء، خيّرًا صادقًا، حسن الخلق، حلو النادرة، من أذكياء الرجال.

(١) رواه البخاري (٦٣١٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٧٧٨)، وأحمد (٣/ ٢١)، والطبراني في الدعاء (٤٢١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفي سنده عطية العوفي سيِّئ الحفظ ومدلس.

(٣) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (١٢٥) عدا قوله: (بيده الخير).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٦٥)، والترمذي (٣٤١٠)، والنسائي (٣/ ٧٤)، وابن ماجه (٩٢٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٠)، وابن السني (١٢٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

١٧١٥ ـ فَإِذَا أَعَدْتَ دَرْسَكَ إِلىٰ وَقْتِ الضُّحىٰ الأَعْلَىٰ، فَصَلِّ الضُّحىٰ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، ثُمَ تَشَاغَلْ بِمُطَالَعَةٍ، أَوْ نَسْخٍ إِلىٰ وَقْتِ العَصْرِ، ثُمَّ عُدْ إِلىٰ دَرْسِكَ مِنْ بَعْدِ العَصْرِ إِلىٰ وَقْتِ المَغْرِبِ، وَصَلِّ بَعْدَ المَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ بِجُزْأَيْنِ، فَإِذَا صَلَّيْتَ العِشَاءَ، فَعُدْ إِلىٰ دُرُوْسِكَ.

١٧١٦ ـ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلىٰ شِقِّكَ الأَيْمَنِ، فَسَبِّحْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِيْنَ، وَاحْمَدْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِيْنَ، وَكَبِّرْ أَرْبَعًا وَثَلَاثِيْنَ[1]، وَقُلْ: «**اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ، يَوْمَ تَجْمَعُ عِبَادَكَ**»[2].

١٧١٧ ـ وَإِذَا فَتَحْتَ عَيْنَيْكَ مِنَ النَّوْمِ فَاعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا، فَقُمْ إِلَىٰ الوُضُوْءِ، وَصَلِّ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ مَا أَمْكَنَ، وَاسْتَفْتِحْ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيْفَتَيْنِ، ثُمَّ بَعْدَهُمَا رَكْعَتَيْنِ بِجُزْأَيْنِ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ تَعُوْدُ إِلىٰ دَرْسِ العِلْمِ، **فَإِنَّ العِلْمَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ نَافِلَةٍ**.

٧/ ٣٨١ - فصل: العزلةُ أصل كل خير

١٧١٨ ـ وَعَلَيْكَ بِالعُزْلَةِ، فَهِيَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَاحْذَرْ مِنْ جَلِيْسِ السُّوْءِ، وَلْيَكُنْ جُلَسَاؤُكَ الكُتُبَ، وَالنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ.

١٧١٩ ـ وَلا تَشْتَغِلْ بِعِلْمٍ حَتّىٰ تُحْكِمَ مَا قَبْلَهُ، وَتَلَمَّحْ سِيَرَ الكَامِلِيْنَ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَلا تَقْنَعْ بِالدُّوْنِ، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ[3]:

وَلَمْ أَرَ فِيْ عُيُوْبِ النَّاسِ شَيْئًا ... كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَىٰ التَّمَامِ

١٧٢٠ ـ وَاعْلَمْ أَنَّ العِلْمَ يَرْفَعُ الأَرَاذِلَ، فَقَدْ كَانَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنَ العُلَمَاءِ لا نَسَبَ لَهُمْ يُذكَرُ، وَلا صُوْرَةَ تُسْتَحْسَنُ.

١٧٢١ ـ وَكَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ[4] أَسْوَدَ اللَّوْنِ، مُسْتَوْحَشَ الخِلْقَةِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ ـ وَهُوَ خَلِيْفَةٌ ـ وَمَعَهُ وَلَدَاهُ[5]، فَجَلَسُوْا يَسْأَلُوْنَهُ عَنِ المَنَاسِكِ،

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧) عن علي رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٩٨) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣) المتنبي، ديوانه ص(٤٧٦).

(٤) أبو محمد القرشي الجمحي مولاهم، ولد في الجَنَد باليمن، ونشأ بمكة، وكان من أوعية العلم، حتى صار شيخ الإسلام ومفتي الحرم، توفي سنة (١١٤هـ).

(٥) في م: ولده

فَحَدَّثَهُمْ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُم بِوَجْهِهِ، فَقَالَ الخَلِيْفَةُ لِوَلَدَيْهِ: قُوْمَا ولا تَنِيا، ولا تَكْسَلَا فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَمَا أَنْسَىٰ ذُلَّنا بَيْنَ يَدَي هٰذَا العَبْدِ الأَسْوَدِ.

١٧٢٢ ـ وَكَانَ الحَسَنُ مَوْلًىٰ ـ أي: مَمْلُوْكًا ـ وَابْنُ سِيْرِيْنَ وَمَكْحُوْلٌ وخَلْقٌ كَثِيْرٌ، وَإِنَّمَا شَرُفُوا بِالعِلْمِ والتَّقْوَىٰ.

٨/ ٣٨٢ - فصل: اقتنع تعزّ

١٧٢٣ ـ وَاجْتَهِدْ يَا بُنَيَّ فِي صِيَانَةِ عِرْضِكَ مِنَ التَّعَرُّضِ لِطَلَبِ الدُّنْيَا، والذُّلِّ لأَهْلِهَا، وَاقْنَعْ تَعِزَّ، فَقَدْ قِيْلَ: مَنْ قَنَعَ بِالخُبْزِ وَالبَقْلِ لَمْ يَسْتَعْبِدْهُ أَحَدٌ.

١٧٢٤ ـ وَمَرَّ[1] أَعْرَابِيٌّ عَلَىٰ البَصْرَةِ **فَقَالَ**: مَنْ سَيِّدُ هٰذِهِ البَلْدَةِ[2]؟ **قِيْلَ لَهُ**: الحَسَنُ البَصْرِيُّ، **قَالَ**: وَبِمَ[3] سَادَهُمْ؟ **قَالُوْا**: لأَنَّهُ اسْتَغْنَىٰ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَافْتَقَرُوْا إِلَىٰ عِلْمِهِ.

١٧٢٥ ـ وَٱعْلَمْ ـ يَا بُنَيَّ ـ أَنَّ أَبِي كَانَ مُوْسِرًا وَخلَّفَ أُلُوْفًا مِنَ المَالِ، فَلَمَّا بَلَغْتُ، دَفَعُوْا لِي عِشْرِيْنَ دِيْنَارًا وَدَارَيْنِ، وَقَالُوْا لِيْ: هٰذِهِ التَّرِكَةُ كُلُّهَا، فَأَخَذْتُ الدَّنَانِيْرَ، وَاشْتَرَيْتَ بِهَا كُتُبًا مِنْ كُتُبِ العِلْمِ، وَبِعْتُ الدَّارَيْنِ، وَأَنْفَقْتُ ثَمَنَهُما فِيْ طَلَبِ العِلْمِ، وَلَمْ يَبْقَ لِيْ شَيْءٌ مِنَ المَالِ، وَمَا ذُلَّ أَبُوْكَ فِي طَلَبِ العِلْمِ قَطُّ، وَلا خَرَجَ يَطُوْفُ فِي البُلْدَانِ كَغَيْرِهِ مِنَ الوُعّاظِ، وَلا بَعَثَ رُقْعَةً إِلَىٰ أَحَدٍ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا قَطُّ، وَأُمُوْرُهُ تَجْرِي عَلَىٰ السَّدَادِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٩/ ٣٨٣ - فصل: متى صحّت التقوى رأيت كل خير

١٧٢٦ ـ يَا بُنَيَّ! وَمَتَىٰ صَحَّتِ التَّقْوَىٰ رَأَيْتَ كُلَّ خَيْرٍ، وَالمُتَّقِي لا يُرَائِي الخَلْقَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِمَا يُؤْذِي دِيْنَهُ، وَمَنْ حَفِظَ حُدُوْدَ اللهِ حَفِظَهُ اللهُ. قَالَ

---

(١) في نسخة: وجاز.
(٢) وفي نسخة: القرية.
(٣) وفي نسخة: ولم.

رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ**»[1].

١٧٢٧ ـ وَاعْلَمْ ـ يَا بُنَيَّ ـ أَنَّ يُوْنُسَ عليه السلام لَمَّا كانَتْ ذَخِيْرَتُهُ خَيْرًا نَجا بِهَا مِنَ الشِدَّةِ. قالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وَأَمَّا **فِرْعَوْنُ** فَلَمّا لَمْ تَكُنْ لَهُ ذَخِيْرَةُ خَيْرٍ، لَمْ يَجِدْ فِي شِدَّتِهِ[2] مَخْلَصًا، فَقِيْلَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]. فَاجْعَلْ لَكَ ذَخائِرَ خَيْرٍ مِنْ تَقْوَىٰ تَجِدْ تَأْثِيْرَهَا. وَقَدْ جاءَ فِي الحَدِيْثِ: «**مَا مِنْ شَابٍّ اتْقَى اللهَ فِي شَبَابِهِ إِلّا رَفَعَهُ اللهُ فِي كِبَرِهِ**»[3]. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

١٧٢٨ ـ وَاعْلَمْ أَنَّ أَوْفَىٰ الذَّخائِرِ غَضُّ الطَّرْفِ عَنْ مُحَرَّمٍ، وَإِمْسَاكُ اللِّسانِ عَنْ فَضُوْلِ كَلِمَةٍ، وَمُرَاعاةٌ لِحَدٍّ، وَإِيْثارُ اللهِ تعالى عَلىٰ هَوَىٰ النَّفْسِ.

١٧٢٩ ـ وَقَدْ عَرَفْتَ حَدِيْثَ: «الثَّلاثَةِ الَّذِيْنَ دَخَلُوْا إِلىٰ غارٍ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، **فَقالَ أَحَدُهُمْ**: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كانَ لِيَ أَبَوانِ وَأَوْلادٌ، فَكُنْتُ أَقِفُ بِالحَلِيْبِ عَلىٰ أَبَوَيَّ أَسْقِيْهِمَا قَبْلَ أَوْلادِي، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ لأَجْلِكَ فَافْرُجْ عَنّا، فَانْفَرَجَ ثُلُثُ الصَّخْرَةِ. **وَقالَ الآخَرُ**: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيْرًا، فَتَسَخَّطَ أَجْرَهُ، فاتَّجَرْتُ بِهِ، فَجاءَ يَوْمًا **فَقالَ**: أَلَا تَخافُ اللهَ وَتُعْطِيْنِي أُجْرَتِي؟ **فَقُلْتُ**: انْظُر إِلىٰ تِلْكَ البَقَرِ وَرُعَاتِهَا فَخُذْهَا، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ لأَجْلِكَ فَفَرِّجْ عَنّا، فَانْفَرَجَ ثُلُثا الصَّخْرَةِ، **فَقالَ الآخَرُ**: اللَّهُمَّ إِنِّي عَلِقْتُ[4] بِنْتَ عَمٍّ لِي، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهَا **قالَتْ**: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ لأَجْلِكَ فَفَرِّجْ عَنّا، فَرُفِعَتِ الصَّخْرَةُ، وَخَرَجُوْا»[5].

١٧٣٠ ـ وَرُئِيَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ فِي المَنَامِ، **فَقِيْلَ لَهُ**: مَا

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦).

(٢) في نسخة: سكرته.

(٣) انظر: كنز العمال (٤٣١٠٥ و٤٣١٠٦).

(٤) علقت: عشقت.

(٥) ساق المؤلف الحديث بالمعنى، وقد تقدم تخريجه.

فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ **قَالَ**: مَا كَانَ إِلَّا أَنْ وُضِعْتُ فِي اللَّحْدِ، فَإِذَا أَنَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العَالَمِيْنَ، فَدَخَلْتُ، فَإِذَا بِقَائِلٍ **يَقُوْلُ**: سُفْيَانُ؟. **قُلْتُ**: سُفْيَانُ. **قَالَ**: تَذْكُرُ يَوْمَ آثَرْتَ اللهَ عَلَىٰ هَوَاكَ؟ **قُلْتُ**: نَعَمْ. فَأَخَذَتْنِي صَوَانِي النِّثَارِ[1] فِي الجَنَّةِ.

١٠/ ٣٨٤ - فصل: سمو الهمة إلى الكمال

١٧٣١ ـ وَيَنْبَغِي أَنْ تَسْمُو هِمَّتُكَ إِلَىٰ الكَمَالِ، فَإِنَّ **خَلْقًا** وَقَفُوْا مَعَ الزُّهْدِ، وَ**خَلْقًا** تَشَاغَلُوْا بِالعِلْمِ، وَنَدَرَ أَقْوَامٌ جَمَعُوْا بَيْنَ العِلْمِ الكَامِلِ، والعَمَلِ الكَامِلِ.

١٧٣٢ ـ وَاعْلَمْ أَنِّي قَدْ تَصَفَّحْتُ التَّابِعِيْنَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَحْظَىٰ بِالكَمَالِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ: سَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبِ، وَالحَسَنِ البَصْرِيِّ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِي، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل ﷺ، وَقَدْ كَانُوْا رِجَالًا، وَإِنَّمَا كَانَتْ لَهُمْ هِمَمٌ ضَعُفَتْ عِنْدَنَا، وَقَدْ كَانَ فِي السَّلَفِ خَلْقٌ كَثِيْرٌ لَهُمْ هِمَمٌ عَالِيَةٌ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ أَحْوَالِهِم، فَانْظُر فِي كِتَابِ (صِفَةِ الصَّفْوَةِ)[2] وَإِنْ شِئْتَ تَأَمَّلْ أَخْبَارَ سَعِيْدٍ، وَالحَسَنِ، وسُفْيَانَ، وَأَحْمَدَ ﷺ، فَقَدْ جَمَعْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم كِتَابًا.

١١/ ٣٨٥ - فصل: الحفظ رأس المال والتصرف ربح

١٧٣٣ ـ وَقَدْ عَلِمْتَ يَا بُنَيَّ أَنِّي صَنَّفْتُ مِئَةَ كِتَابٍ[3]، فَمِنْهَا التَّفْسِيْرُ الكَبِيْرُ[4]: عِشْرُوْنَ مُجَلَّدًا، وَالتَّارِيْخُ[5]: عِشْرُوْنَ مُجَلَّدًا، وَتَهْذِيْبُ المُسْنَدِ: عِشْرُوْنَ مُجَلَّدًا، وَبَاقِي الكُتُبِ بَيْنَ كِبَارٍ وَصِغَارٍ، يَكُوْنُ خَمْسَةَ مُجَلَّدَاتٍ، وَمُجَلَّدَيْنِ، وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً، وأَقَلَّ وَأَكْثَرَ، كَفَيْتُك بِهٰذِهِ التَّصَانِيْفِ عَنِ اسْتِعَارَةِ الكُتُبِ، وَجَمْعِ الهِمَمِ فِي التَّأْلِيْفِ.

١٧٣٤ ـ فَعَلَيْكَ **بِالحِفْظِ! وَإِنَّمَا الحِفْظُ رَأْسُ المَالِ وَالتَّصَرُّفُ رِبْحٌ**، وَاصْدُقْ فِي الحَالَيْنِ فِي الالْتِجَاءِ إِلَىٰ الحَقِّ سُبْحَانَهُ، فَرَاعِ حُدُوْدَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ

---

(١) أوانٍ ينثر ما فيها من حلوى في الأفراح إكرامًا للضيف.

(٢) للمؤلف.

(٣) هذا إلى وقت كتابة هذه الرسالة.

(٤) هو المغني الآتي ذكره.

(٥) هو المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

١٢/٣٨٦ - فصل: من أعرض عن العمل منع البركة

١٧٣٥ - وَإِيَّاكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ صُوْرَةِ العِلْمِ دُوْنَ العَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ الدَّاخِلِيْنَ عَلىٰ الأُمَرَاءِ، وَالمُقْبِلِيْنَ عَلىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا قَدْ أَعْرَضُوْا عَنِ العَمَلِ بِالعِلْمِ، فَمُنِعُوْا البَرَكَةَ، وَالنَّفْعَ بِهِ.

١٣/٣٨٧ - فصل: على قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السمَّاعون

١٧٣٦ - وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَشَاغَلَ بِالتَّعَبُّدِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، فَإِنَّ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ المُتَصَوِّفَةِ ضَلُّوْا طَرِيْقَ الهُدَىٰ، إِذْ عَمِلُوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ.

١٧٣٧ - وَاْسْتُرْ نَفْسَكَ بِثَوْبَيْنِ جَمِيْلَيْنِ لا يُشْهِرَانِكَ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا بِرِفْعَتِهِمَا، وَلا بَيْنَ المُتَزَهِّدِيْنَ بِضِعَتِهِما.

١٧٣٨ - وَحَاسِبْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ نَظْرَةٍ وَكَلِمَةٍ وَخُطْوَةٍ، فَإِنَّكَ مَسْؤولٌ عَنْ ذٰلِكَ، وَعَلَىٰ قَدْرِ انْتِفَاعِكَ بِالعِلْمِ يَنْتَفِعُ السَّامِعُوْنَ، وَمَتَىٰ لَمْ يَعْمَلِ الوَاعِظُ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ القُلُوْبِ، كَمَا يَزِلُّ المَاءُ عَنِ الحَجَرِ، فَلَا تَعِظَنَّ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلا تَمْشِيَنَّ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا تَأْكُلَنَّ لُقْمَةً إِلَّا بِنِيَّةٍ، ومَعَ مُطَالَعَةِ أَخْلَاقِ السَّلَفِ يَنْكَشِفُ لَكَ الأَمْرُ.

١٤/٣٨٨ - فصل: عليك بقراءة هذه الكتب

١٧٣٩ - وَعَلَيْكَ بِكِتَابِ (مِنْهَاجِ المُرِيْدِيْنَ) فَإِنَّهُ يُعَلِّمُكَ **السُّلُوْكَ**، وَاْجْعَلْهُ جَلِيْسَكَ وَمُعَلِّمَكَ، وَتَلَمَّحْ كِتَابَ (**صَيْدِ الخَاطِرِ**) فَإِنَّكَ تَقَعُ بِوَاقِعَاتٍ تُصْلِحُ لَكَ دِيْنَكَ وَدُنْيَاكَ، وَتَحْفَظُ كِتَابَ (جَنَّةَ النَّظَرِ) فَإِنَّهُ يَكْفِي فِي تَلْقِيْحِ فَهْمِكَ **لِلْفِقْهِ**، وَمَتَىٰ تَشَاغَلْتَ بِكِتَابِ (الحَدَائِقِ) أَطْلَعَكَ عَلىٰ جُمْهُوْرِ **الحَدِيْثِ**، وَإِذَا الْتَفَتَّ إِلىٰ كِتَابِ (الكَشْفِ) أَبَانَ لَكَ مَسْتُوْرَ مَا فِي (الصَّحِيْحَيْنِ) مِنَ **الحَدِيْثِ**، وَلا تَتَشَاغَلَنَّ بِكُتُبِ التَّفَاسِيْرِ الَّتِي

صَنَفَتْهَا الأَعَاجِمُ، وَمَا تَرَكَ (المُغْنِي) وَ(زَادُ المَسِيْرِ) لكَ حاجةً! في شَيْءٍ من **التَّفْسِيْرِ**[1]. وَأَمَّا مَا جَمَعْتُهُ لَكَ مِنْ كُتُبِ **الوَعْظِ** فَلَا حَاجَةَ بَعْدَها إِلىٰ زِيَادَةٍ أَصْلًا.

١٥/ ٣٨٩ - فصل: حسن المداراة

١٧٤٠ - وَكُنْ حَسَنَ المُدَارَاةِ لِلْخَلْقِ، مَعَ شِدَّةِ الاعْتِزَالِ عَنْهُم، فَإِنَّ العُزْلَةَ رَاحَةٌ مِنْ خُلَطَاءِ السُّوْءِ، وَمُبْقِيَةٌ لِلْوَقَارِ، فَإِنَّ الوَاعِظَ - خَاصَّةً - يَنْبَغِي لَهُ أَلّا يُرَىٰ مُتَبَذِّلًا، وَلَا مَاشِيًا فِي السُّوْقِ، وَلا ضَاحِكًا، لِيَحْسُنَ الظَّنُّ بِهِ، فَيُنْتَفَعَ بِوَعْظِهِ، فَإِذَا اضْطُرِرْتَ إِلىٰ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فَخَالِطْهُمْ بِالحِلْمِ عَنْهُم، فَإِنَّكَ إِنْ كَشَفْتَ عَنْ أَخْلَاقِهِم لَمْ تَقْدِرْ عَلىٰ مُدَارَاتِهِم.

١٦/ ٣٩٠ - فصل: أدّ إلى كل ذي حقّ حقَّهُ

١٧٤١ - وَأَدِّ إِلىٰ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وَقَرَابَةٍ، وَانْظُرْ كُلَّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِكَ، بِمَاذَا تَذْهَبُ؟ فَلَا تُوَدِّعْهَا إِلّا[2] أَشْرَفَ مَا يُمْكِنُ، وَلا تُهْمِلْ نَفْسَكَ، وَعَوِّدْهَا أَشْرَفَ مَا يَكُوْنُ مِنَ العَمَلِ وَأَحْسَنَهُ، وابْعَثْ إِلىٰ صُنْدُوْقِ القَبْرِ مَا يَسُرُّكَ الوُصُوْلُ إِلَيْهِ، كَمَا قِيْلَ:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلْ ... وَغَرَّهُ طُوْلُ الأَمَلْ

المَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً ... وَالقَبْرُ صُنْدُوْقُ العَمَلْ

١٧٤٢ - وَرَاعِ عَوَاقِبَ الأُمُوْرِ، يَهُنْ عَلَيْكَ الصَّبْرُ عَنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِي وَمَا تَكْرَهُ، وَإِنْ وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ غَفْلَةً فَاحْمِلْهَا إِلىٰ المَقَابِرِ، وَذَكِّرْهَا قُرْبَ الرَّحِيْلِ.

١٧٤٣ - وَدَبِّرْ أَمْرَكَ - وَاللهُ المُدَبِّرُ - فِي إِنْفَاقِكَ، مِنْ غَيْرِ تَبْذِيْرٍ، لِئَلَّا تَحْتَاجَ إِلىٰ النَّاسِ، فَإِنَّ حِفْظَ المَالِ مِنَ الدِّيْنِ، وَلأَنْ تُخَلِّفَ لِوَرَثَتِكَ خَيْرٌ مَنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلىٰ النَّاسِ.

---

(١) في نسخة: فن التفسير.

(٢) في ت: إلى.

١٧/ ٣٩١ - فصل: إننا من أولاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

١٧٤٤ ـ يَا بُنَيَّ، وَٱعْلَمْ أَنَّنَا مِنْ أَوْلَادِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه، وَأَبُوْنَا القَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه ـ وَأَخْبَارُهُ مُوَثَّقَةٌ فِي كِتَابِ (صِفَةِ الصَّفْوَةِ)[1].

١٧٤٥ ـ ثُمَّ تَشَاغَلَ سَلَفُنَا بِالتِّجَارَةِ وَالبَيْعِ والشِّرَاءِ، فَمَا كَانَ مِنَ المُتَأَخِّرِيْنَ مَنْ رُزِقَ هِمَّةً فِي طَلَبِ العِلْمِ غَيْرِي، وَقَدْ آلَ الأَمْرُ إِلَيْكَ، فَٱجْتَهِدْ أَلّا تُخَيِّبَ ظَنِّي فِيْمَا رَجَوتُهُ فِيْكَ وَلَكَ، وَقَدْ أَسْلَمْتُكَ إِلىٰ اللهِ تعالى، وَإِيَّاهُ أَسْأَلُ أَنْ يُوَفِّقَكَ لِلْعِلْمِ وَالعَمَلِ.

وَهٰذَا قَدْرُ ٱجْتِهَادِي فِي وَصِيَّتِي، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ، وَالحَمْدُ للهِ مُزِيْدِ الحَامِدِيْنَ، وَصَلّىٰ اللهُ عَلىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

جاء في آخر النسخة الخطية التي نقلنا عنها الموجودة بدار الكتب المصرية تحت نمرة (١٢٥) مجاميع، ما نصّه:

آخرُ كتابِ (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد) والحمدُ للهِ رب العالمين، وصلوات الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه الأكرمين، كُتِبَ في يوم الإثنين ثالث عشر شعبان المعظم سنة ثلاث وسبع مئة.

وقوبلتْ بنسخةٍ أُخرى موجودةٍ بدار الكتب تحت نمرة (١٢٣) مجاميع، وذلك في يوم الأربعاء ٢٣ من رمضان سنة (١٣٤٩)هـ بمعرفة عثمان خليل.

❁ ❁ ❁

(١) صفة الصفوة، ترجمة رقم (١٦٣): ٢/ ٨٨ ط. دار الوعي بحلب.